المرأة الحديدية

تِد هيوز

ترجمة: بثينة الإبراهيم

رسوم: سارة إسماعيل

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنوار

https://t.me/osn_osn

Scan me!

المرأة الحديدية

تد هويز

مكتبة إيلينا

Elena book

الكاتب: تِد هيوز
عنوان الكتاب: المرأة الحديدية
ترجمة: بثينة الإبراهيم
رسوم: سارة إسماعيل

العنوان باللغة الأصلية: The Iron Woman
الكاتب: Ted Hughes

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد الرقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-89-6
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2025 - 1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

First published in 1993 by Faber and Faber Limited
Bloomsbury House, 74–77 Great Russell Street London WC1B 3DA
This edition published by arrangement with Faber and Faber Limited, London
© The Estate of Ted Hughes, 1993
All rights reserved

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPU
www.takweenkw.com

إلى فريدا ونيكولاس

إيلينا

-١-

بدأت إجازة عيد الفصح. كانت لوسي في طريقها إلى البيت، تمشي بين ضفتين من القصب بمحاذاة طريق المستنقع، عندما بدأ الأمر. فقد وصلت إلى الجسر الصغير، حيث يعلو الطريق فوق المصرف العميق. سمّت هذا المكان باسم جسر مأدبة القندس، لأنها رأت مرة قندسًا على حافته فوق الماء الأسود، يأكل ثعبان الماء. مضى على هذا المشهد ثلاث سنوات، غير أنها لم تزل تشعر بالحماس كلما جاءت إلى هذه الناحية من الطريق، ولهذا كانت دائمًا تنظر متشوقة إلى الأمام في اتجاه الجسر.

كان الجسر اليوم خاويًا كالمعتاد. وأخذت تنظر وهي تعبر الجسر من بين قضبانه إلى الماء الأسود. هذه عادتها دائمًا، تحسُّبًا لأن يكون في الماء قندس ينظر إليها، أو ربما يسبح في الماء تلك اللحظة.

ولكن ثمة شيء اليوم. فما هذا الشيء في الماء؟ استندت إلى حاجز الجسر وأطلت.

شيء عميق في الماء الغامق، شيء أبيض مستمر في التلوي، أيكون سمكة؟

وأدركت الأمر فجأة. إنه ثعبان الماء يتحرك حركات غريبة جدًا. ظنت في بادئ الأمر أنهما ثعبانان يتشاجران، غير أنه كان واحدًا فقط. كان جسده ينعقد ثم ينحل، وهو يدور في سباحته دورات سريعة، يتلولب مرة بعد مرة في طريقه. وفي لحظة انقذف ذيله خارج الماء، ثم تلوى في الطين، مُشكِّلًا غيمة رمادية منسابة. وخرج بعدها إلى السطح مجددًا، مبرزًا رأسه إلى الهواء. فرأت وجهه المدبب، وفمه الصغير ينفتح، ورأت منه تجويف فمه الفاتح اللون. ثم رأته يتلوى ويسقط في شكل عقدة. إنه ثعبان ماء صغير جدًا، لا يزيد طوله على قدم.

وفي رقصته الدائرية المتلوية المندفعة، كان ينقاد مع تيار مياه الصرف. وغاب عن نظرها تحت لمعان الماء.

وعلى مبعدة عشرين ياردة رأت رأسه يبرز مجددًا، ثم دار واختفى، ومن جديد برز رأسه.

ما خطبه؟ شعرت لدى رؤية رأسه المميز يبرز من الماء على هذا النحو، وفمه ينفتح، بغصة في أعماقها. وانتابتها رغبة في التقاط ثعبان الماء ومساعدته. إنه في حاجة إلى المساعدة، فقد اعتراه خطب ما.

في هذه الأثناء، انتابها شعور آخر، وهي تُنعِم النظر إلى البريق المتموج لمياه الصرف حيث التفَّ الثعبان مبتعدًا بين أعواد القصب الطويلة.

لم تعرف في بادئ الأمر ما الذي جعل رأسها يدور وقدميها تترنحان. فأمسكت بحاجز الجسر وباعدت بين قدميها. وظنت أنها شعرت بالحاجز يرج يدها.

ما الأمر؟

«غارونك! غارونك! غاراااارك!»

كان مالك الحزين بهيئته الوسخة المترهلة يندفع خارجًا من بين أعواد القصب. لم يخفق بجناحيه بحركة بطيئة مهيبة كعادة طائر مالك الحزين، بل رفرف وقذف بنفسه إلى أعلى، كأنه يقفز على سلم لولبي خفي. ومن ارتفاع عالٍ سقط ناحية البحر الواقع خلف السباخ. لقد أرعبه شيء ما، ولكن ما هو؟ لقد أثار ذعره شيء في المستنقع، وذعرت لوسي لرؤية خوف مالك الحزين.

مكتبة إيلينا
Elena book

لطالما كان المستنقع مكانًا نائيًا، وراودها شعور بالعزلة الآن. وقفت هناك، تنظر عاليًا إلى السماء الملبدة بالغيوم الناعمة ذات اللونين الأزرق والزهري التي تتحرك ببطء. نظرت مجددًا إلى المصرف، حيث مالت أعواد القصب إلى جانب واحد تنحني برفق للنسيم الرقيق. لم يعد الثعبان مرئيًا. أتراه لا يزال يتلوّى ويخرج رأسه من الماء، والتيار الهادئ يحمله في المستنقع؟ نظرت إلى المصرف الواقع تحت الجسر. انساب الماء الأسود بصمت متغضنًا ملتفًا في دوامات صغيرة من الضوء.

وعاد مجددًا. قفز طريق الجسر تحت قدميها وهز الحاجز يدها. وفي اللحظة نفسها غشي سطحَ ماء المصرف شبكة مفاجئة من المويجات.

زلزال! لا بد أنه زلزال.

استولى على لوسي ضرب جديد من الخوف. ولم تجرؤ على الإتيان بحركة بضع ثوانٍ. فقد كان تخيُّل انهيار الجسر ووقوعها في المصرف ذي الثعابين المتلوية مخيفًا جدًا. غير أن تخيل انفلاق المستنقع في صدع كبير، ووقوعها هي والماء والطين وثعابين الماء وأعواد القصب في سواد لا قاع له، أو في جوف الأرض أشد رعبًا. وأحسّت بأصابع قدميها تنثني كأنها مخالب وبأخمصي قدميها يتنملان من الكهرباء.

وأخذت تمشي بسرعة، كأنها تمشي على لوح خشبي رفيع وثّاب بين ناطحتي سحاب. رفعت كل قدم بحذر وأنزلتها بثبات ورفق، بأقصى ما استطاعت من سرعة، وبترؤ في الآن نفسه. غير أنها أخذت تجري، ولم تتمكن من تجنب ذلك. فماذا لو أن ضربة الزلزال أوقعت السقف على أمها؟ أو هدمت بيوت القرية كأحجار الدومينو؟ وماذا لو أن قطعة كبيرة عالية من آلة ما، سقطت على أبيها في المصنع؟

لكن الأمر حدث مجددًا وهي تركض فاختل توازنها، فضربت قدمها اليسرى سمانة رجلها اليمنى فوقعت.

وبينما هي ممددة بلا حراك منقطعة الأنفاس، حدث الأمر ثانية. لكن الطريق ضرب صدرها وبطنها هذه المرة، بخبطة قوية شديدة. ثم أخرى. ورأت في كل مرة حصباء الطريق تحت وجهها يقفز قليلًا. عندئذ، وهي راقدة هناك، سمعت أغرب الأصوات. ليس كصوت أي طير سمعته من قبل، فقد جاء من المستنقع خلفها. كان صرخة منتحبة طويلة، كصوت صفارة سيارة الإطفاء. فهبت واقفة وأخذت تركض بلا هدى.

كان الرأس قد خرج سلفًا، غير أنه لم يشبه هيئة الرأس كثيرًا، بل كتلة سوداء عملاقة تكللها أعواد القصب ويتسايل منها الطين. كان الفم واضحًا، وبعد الصرخة المنتحبة الأولى، تحركت الشفتان ببطء كشفتي سرطان تلفظان الطين والجذور.

مرت نصف ساعة قبل أن تتحرك الكتلة مجددًا. وفي تحركها نتأت أعواد القصب على الجانبين وانجزّت، واندفق بينها الماء الأسود الملوث بالطين. انفتح الفم وخرج منه أنين طويل مدوٍّ، والرأس يتحرر مما علق به. وتحولت أنّة أخرى إلى عويل مدوٍّ. غيّر نورس محلق فوق المستنقع كقصاصة ورقية مساره بسرعة عندما ارتفعت أمامه الهيئة التي يرشح منها الماء، كجدار مفاجئ لجرف، وانصبت منها شلالات من الطين الأسود وأعواد القصب ذات الجذور المتشابكة، حيث تلوت أفاعي العشب وضربت جرذان الماء بكفوفها الأمامية، ترمش بأعينها وتزعق في أثناء سقوطها.

كانت الهيئة السوداء بحجم فيلين أو ثلاثة، وتشبه ديناصورًا عملاقًا له رأس فرس النهر، يحبو على يديه ورجليه خارجًا من حفرة قطران تعود إلى ما قبل التاريخ. ها قد اعتدل في جلسته، وما زال شبيهًا بالديناصور. ثم لمحَ البصر بدا شبيهًا بالبشر على الرغم من ضخامته. أمسكت اليدان الهائلتان بالرأس، وقذفتا كتلًا من أعواد القصب الملوثة بالطين. وفي خضم البقبقة والرشفات، وبأنين وعويل وقف الشيء منتصب القامة. كان هائل الحجم له شكل الإنسان كتمثال من

الطين الأسود، يتمايل ويئن، واقفًا فوق المستنقع المنعزل.

وعلى مبعدة نصف ميل انحنى مراقب طيور فوق عش طير الواق، ممسكًا بطائر واق ميت ومتحسسًا البيض البارد الذي رقد عليه الطير الميت. وكان يراقب هذا الطير من مخبئه الذي يبعد عشرة أقدام طوال اليوم، منتظرًا أن يفقس البيض. وعرف سلفًا أن الفراخ تأخرت في الخروج من بيضها. وعندما بدأت أولى الاهتزازات، التي رجت آلة التصوير على حامل ثلاثي القوائم، قال لنفسه إنها تفجيرات في مقلع الحجارة البعيد. وظن أن العويل الغريب صفارة إنذار من المصنع. إذ عرف أن مصنعًا كبيرًا يقع خارج البلدة، ولا يبعد إلا ميلين أو ثلاثة. وما سبب الاهتزازات سوى هذا؟ وبعدما سمع النحيب المدوي الثاني، رأى شيئًا يبعث على الدهشة أكثر. فاستخدم منظاره ليستطلع الأمر. كانت ذبابتان كبيرتان تفحصان عين طائر الواق في العش. وتيقن مصدومًا من موت الطائر. كان إذًا يراقب طائرًا ميتًا طوال النهار، ولعله فعل ذلك أمس أيضًا. وكان هذا أهم من أي صوت، فخاض خارجًا ورفع الأم الميتة عن بيضها. كان مذعورًا مشلول الحركة.

وفي وقوفه هناك، وهو يقول لنفسه إن عليه أخذ الطائر والبيض ليفحصها عالمٌ ما، لمعرفة الشيء الذي تسبب في مقتلهم، جاءت الصرخة المنتحبة الثالثة أعلى بكثير من سابقتيها. وارتج المستنقع في اللحظة نفسها كأنه هلام كبير، وظن أنه زلزال! وربما كانت هذه صفارة الإنذار.

كان مخبؤه على حافة أرض عالية تبرز من الطريق إلى المستنقع. وحجبت الرؤية خلفه أشجار صفصاف كبيرة وارفة الأغصان عمّا أثار خوف مالك الحزين والنورس. لكن صورة الزلزال قد بثت في نفسه خوفًا. فأخذ يحزم آلة التصوير، حاضنًا البيض البارد في إحدى يديه، ومتأبطًا الطائر الميت، وعاد إلى سيارته

الواقفة بين أشجار الصفصاف. فتح باب السيارة، فهزته هزة ثانية.

قاد سيارته على آثار العجلات في الأرض المعشبة إلى الطريق، قريبًا من الجسر الذي وقفت عليه لوسي تراقب ثعبان الماء. استدار يَمنةً، نحو البلدة، فاتسعت عيناه دهشةً ودار رأسه. لا يمكن للبرج الأسود المتمايل المكلل، الذي يبعد مئة ياردة قرب الطريق، أن يكون أي شيء. إلا إن كان هيكلًا لتركيب هوائيات، أو شيئًا يخص الرادار، وألبس شيئًا للتمويه. وظل يحاول تفسير الأمر، رغم تحرك الشيء. لعله طاحونة هوائية ليس لها أذرع يُراد نقلها، كما تنقل البيوت المبنية في أمريكا. لعل شركة أفلام سينمائية تصور فيلمًا، فيلم رعب، هذا وارد، وهذا يفسر الأصوات المخيفة أيضًا. لم يعرف على وجه اليقين ماذا يقول، فواصل قيادة السيارة ماضيًا إلى الأمام.

ولكنه عندما وصل الشيء إلى الطريق أمامه مباشرة، ضغط على مكابح السيارة.

كان هذا شيئًا جديدًا. لقد خرج هذا من المستنقع من تلقاء نفسه. ولم تزَل أعواد القصب متشابكة متجمعة على قامته السوداء، مع الوحل. وتبين له ما الذي ينظر إليه فشلّ عقله عن التفكير. ووقف شعره قشعريرة. وأخذت دموع الخوف تنهمر على خديه. لكنه مصور، وهذه فرصة لا يفوّتها المصور المحترف.

حمل آلة التصوير وترجل من السيارة، وفتح غطاء العدسة، وانحنى فوق العين الفاحصة في آلة التصوير.

فملأها السواد. تراجع الرجل مؤرجحًا آلة التصوير من جانب إلى آخر، وهو يحاول أن يحتوي الشكل الضخم في إطار الآلة. ولكن قبل أن يصور طوله كاملًا، رأى في العين الفاحصة أن الشيء قد حمل سيارته. التقط صورة تلو صورة وهو مذعور فَرِحٌ، فخبط الشكل الضخم سيارته على الطريق، ثم رفعها وخبطها مرة بعد أخرى، كأن إمرأ يحاول نفض التراب عن سجادة

ثقيلة. تذكر مراقب الطيور بألم عابر بيضَ طائر الواق. فقد وضعها في قبعته على مقعد الراكب. لكنه نسي أمرها عندما رأى الطلاء والزجاج ينبثقان كالبخار، كلما خبطت السيارة على الطريق. طارت أبواب السيارة، وقفزت العجلات بين أعواد القصب، وانفتح الفم الواقع في الرأس. خرج عويل الصافرة المرعب من ذلك الفم، فاستدار مراقب الطيور وولى فرارًا.

ركض مراقب الطيور، لكنه لم يكُن شديد السرعة. فقذف العملاق الأسود الغاضب السيارة المهروسة التي تشبه علبة صفيح لها لمعان الفولاذ في أعواد القصب، وجرف حفنة من طين المستنقع المتخثر الذي تملؤه الجذور الهزيلة.

ظن مراقب الطيور أن وحش المستنقع لحق به وركله. لكن كتلة الطين المقذوف هي التي ضربته من الخلف، والتفت حوله وجرفته يارادات بعيدة عن الطريق. فبذل جهده ليخرج منها وتشبث بآلة التصوير الزلقة، نافثًا وحلًا أسود قذرًا، وركض يطلب النجاة مبلل الثياب.

وصلت لوسي إلى البيت، ووجدت كل شيء على حاله. لم تشعر أمها بأي ارتجاج أو هزة أرضية. ولم تعرف ما الذي تتحدث عنه ابنتها. عاد والدها مساء، وأخبرهما بأمر تحطم السيارة على طريق المستنقع. إذ فقد مراقب الطيور السيطرة على سيارته وانحرف عن الطريق. كما أنه جُنَّ أيضًا. فقد جاء إلى مكتب بريد القرية، يهذر بشتى صنوف الجنون. أعاده رجال الشرطة إلى البلدة حيث يقيم. أما السيارة فقد تحطمت بكاملها. وأغرب ما في الأمر أنها قد زال عنها كل نقطة طلاء، والطريق كان في فوضى عارمة. بدا الأمر كأن الرجل قد اصطدم بحاجز الصوت. يا له من أمر غريب.

تساءلت لوسي وهي تسمع الخبر عن نوع الجنون الذي هذر به مراقب الطيور. ربما أبعدته الهزات

عن الطريق وأفقدته صوابه في آن معًا. وظلت تلك الصرخة المنتحبة في ذاكرتها. ما الذي يحدث في المستنقع؟ رأت ذراعيها تقشعران في أثناء جلوسها إلى الطاولة.

ثم أخذت تتذكر ثعبان الماء المتلوي.

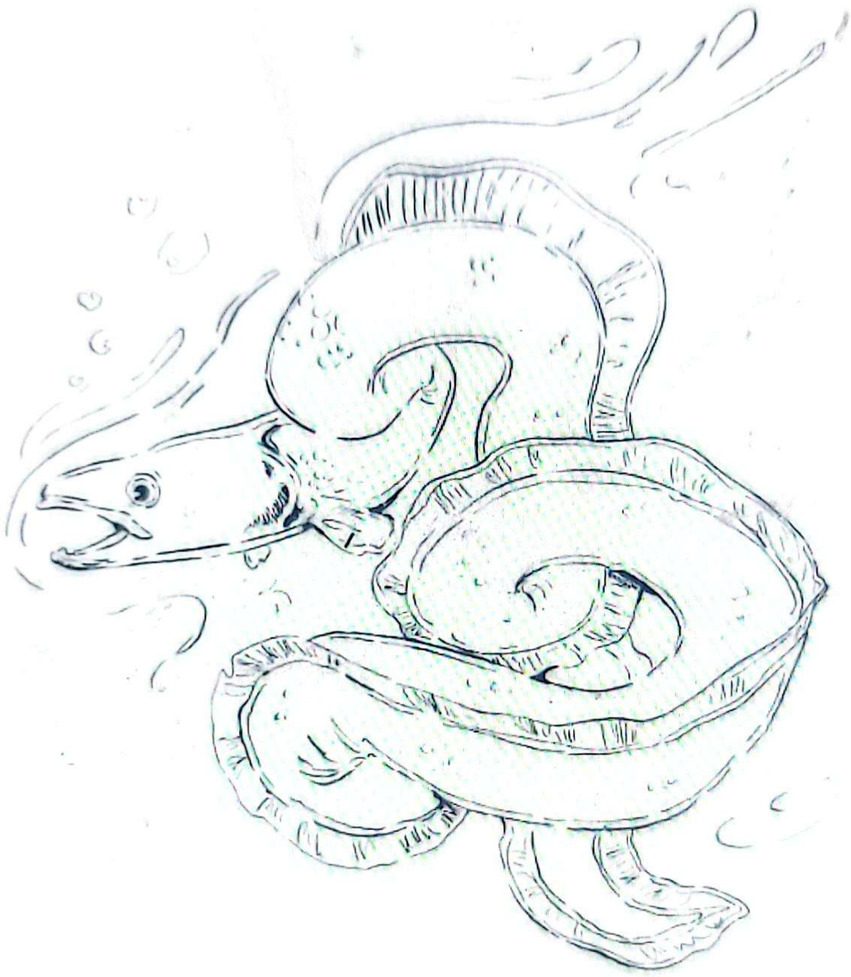

مكتبة إيلينا
Elena book

-٢-

كانت غرفة لوسي في العليّة مظلمة ظلامًا دامسًا. ولو كانت مستيقظة لسمعت صوتًا غريبًا، صوت قُبّرة تغرد بصوت عالٍ في الظلام فوق البيت. ولو كانت واقفة في الحديقة تنظر إلى السماء السوداء بمنظارها، لرأت جسد القبّرة اللامع المرفرف عاليًا في السماء، تنعكس عليه أولى أشعة الشمس التي تنظر إلى الطير من خلف العالم.

انهمر غناء القُبّرة على الحقول المظلمة الندية، وفوق سطوح المنازل وعلى الحدائق الهادئة المخضلّة. لكنه امتزج في غرفة لوسي بصوت أشد منه غرابة، صوت نشيج وشهيق غريب.

رأت لوسي كابوسًا. وفي كابوسها كان أحدهم يرتقي درج العلية المتداعي في اتجاهها. ثم حاولت يدٌ أن تفتح المزلاج العنيد. لا بد من سحب الباب ناحيتك قبل أن تضغط المزلاج كي تفتح الباب. وإذا كنت جاهلًا بهذا، فسيكون فتح الباب شبه مستحيل. لم تعرف اليد في كابوس لوسي بهذا الأمر، فنقر المزلاج واهتز وظل بلا فتح.

ثم ندّ عن المزلاج طقطقة عالية، وانفتح الباب على مصراعيه. صمتت لوسي وهي راقدة على وسادتها، كأنها توقفت عن التنفس.

خيّم الظلام الحالك والهدوء التام على الغرفة لحظات طويلة، إلا من غناء القبّرة البعيد.

رأت لوسي في الكابوس بعدها أن يدًا امتدت إلى كتفها. فأدارت رأسها، ورأت في الحلم شيئًا مروعًا منحنيًا فوقها. ظنته بادئ الأمر فقمة تنظر إليها بعينيها السوداوين اللامعتين. ولكن كيف تكون فقمة؟ لقد بدت لها فقمة يغطيها زيت أسود لامع. فقمة سبحت في بقعة زيت وارتقت إلى غرفتها في العلية وها هي تمسك كتفها بزعانفها.

لكنها لم ترَ على كتفها زعنفة، بل يدًا بشرية. وكانت اليد مغطاة بزيت أسود لزج. وأدركت لوسي عندها أنها ليست فقمة، بل فتاة مثلها، وربما كانت أصغر منها قليلًا. أخذت اليد تهزها، ووجه الفتاة يناديها: «استيقظي! أوه استيقظي! أوه، استيقظي أرجوك!»

نادتها بهذه الكلمات عاليًا كأنها تصرخ، فاستيقظت لوسي.

اعتدلت في فراشها لاهثة. يا له من حلم غريب مروع! ولفّت نفسها بالغطاء، وحدقت في الظلام إلى الباب. أهو مفتوح؟ كانت موقنة من أن الباب مغلق، كما تفعل كل ليلة. فإن كان الباب مفتوحًا...

وسمعت في تلك اللحظة، وهي يقظة تمامًا:

تاب تاب تاب

على نافذتها.

أصغت دون أن تجرؤ على التنفس، فسمعت النقر من جديد:

تاب تاب تاب

أهو طائر؟ عصفور يستيقظ باكرًا؟ تأتي طيور القرقف الأزرق أحيانًا وتنقر معجون الحوائط على أطراف ألواح النافذة وتنظر إلى الداخل، لكنها تفعل ذلك نهارًا.

نهضت من فراشها وجثت قرب النافذة الواطئة، وهي تفتح الستائر.

لم ترَ شيئًا أول الأمر، لا شيء إلا الظلام. وألصقت أنفها بالزجاج، فتبينت شكل السطح الغامق للمنزل المقابل. ولاحظت أمرًا غريبًا قرب الزجاج. كان شيئًا بالغ الصغر لونه أبيض كامد. اقترب أكثر حتى كاد يلامس الزجاج.

أيعقل أن يكون ما تظنه؟

هرعت لتشعل المصباح المجاور لسريرها. وتوقفت هناك هنيهة، تحملق إلى باب الغرفة، المفتوح على

مصراعيه. وعادت إلى النافذة.

خارج النافذة، قريبًا من الزجاج كانت ثلاث من زهور اللبن الثلجية، متضامة السيقان، متباعدة الرؤوس.

أيعقل أن تطير ثلاث من زهور اللبن أو تحلق خارج نافذة العلية، بكل هذا الارتفاع عن الأرض؟ أنزلت السقّاطة وفتحت النافذة.

مكتبة إيلينا
Elena book

جعل الضوء الساطع من ورائها الظلامَ في الخارج أكثر سوادًا. لكنه أضاء زهور اللبن القريبة جدًّا. وأدركت عندئذ أنها محمولة بين إصبع وإبهام ضخمتين، وتقدمتا نحوها.

فتراجعت، وكادت تقع على سريرها. وقفت هناك تنظر إلى النافذة المفتوحة. وضعت الإصبع والإبهام الزهور الثلاث على أسكفة النافذة برفق، وتراجعت.

ذعرت لوسي كثيرًا، لكن الفضول والحماس استحوذا

عليها. لا شك أن هذا أمر عجيب، يجب ألا تخاف. ما الذي سيفوتها إذا سمحت للخوف أن يسيطر عليها؟

تقدمت وأخذت الزهور الثلاث. إنها زهور حقيقية، ولكن من أين أتت؟ أتظهر زهور اللبن الثلجية في إبريل؟ لقد انتهى أوانها منذ زمن طويل.

أطلت في الظلمة. ورأت مجددًا الإصبع والإبهام العملاقتين تمكسان زهرة كف الثعلب. كف الثعلب! في شهر إبريل؟ قبل أوانها بأشهر؟

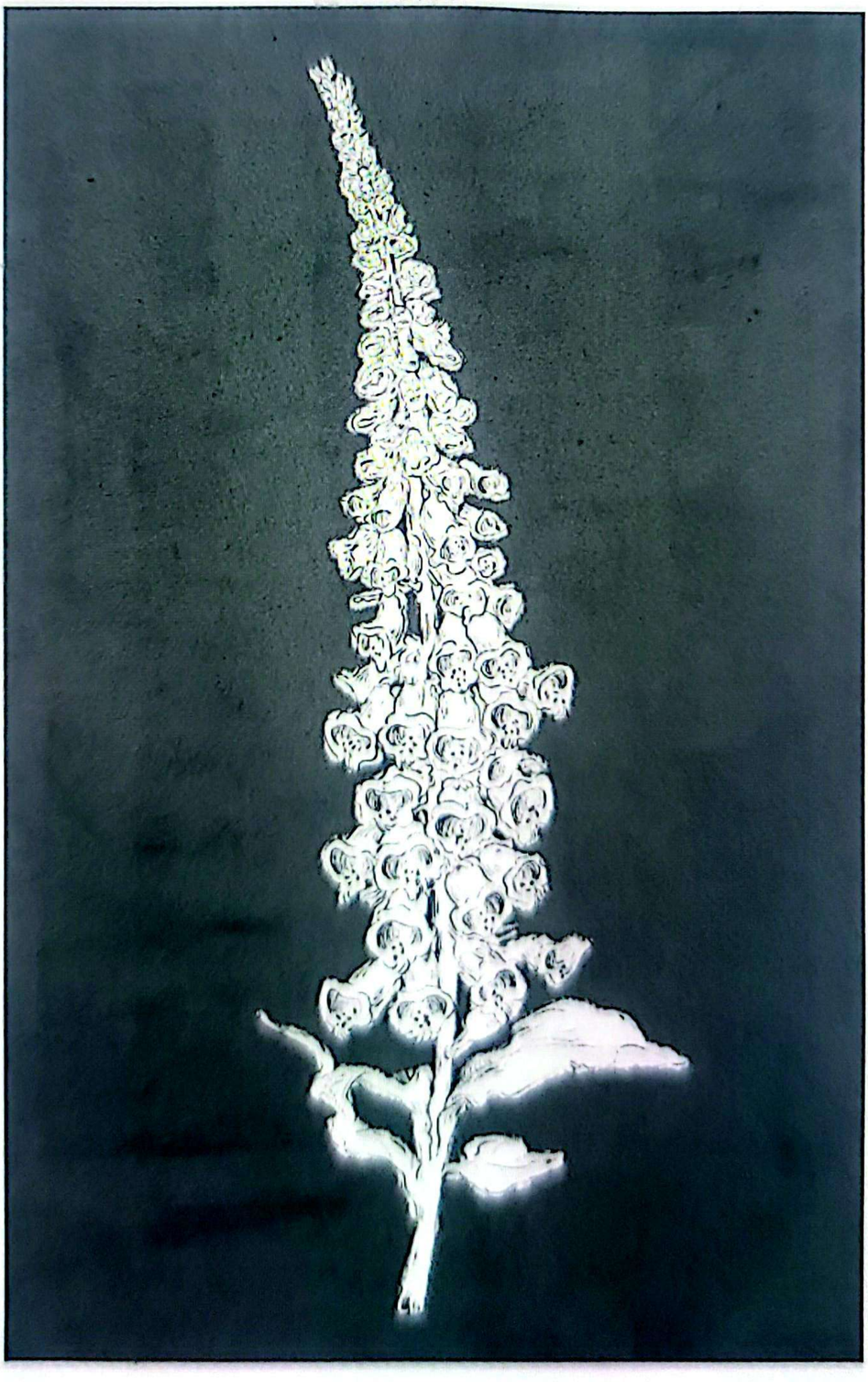

مدت يدها إليهما، فتراجعتا. ما معنى هذا؟ وخطر لها أنهما تطلبان منها اللحاق بهما. وتذكرت كابوسها

والنداء.

وها هي ترى هيئة عملاقة تعلو في الظلام. وخطر لها أنها تقف في حديقتهم الصغيرة حتمًا. أو لعلها تقف على الرصيف.

استدارت وأخذت تلبس ثيابها.

فتحت لوسي الباب وأطلت منه. كان قلبها ينبض بقوة. ما الذي ستراه؟ شخص يقف على مركبة؟ أو على إحدى الرافعات التي تستخدم لإصلاح مصابيح الإنارة في الشوارع؟ أو لربما كان امرأ ضخمًا له أصابع هائلة الحجم؟ وأيًا يكن هذا الشيء، كانت زهور اللبن الثلاث حقيقية جدًا، غير أن الشارع يخلو من المارة.

ها هي خارج البيت، وليس العالم شديد العتمة كما خيّل إليها. فلقد بدأ سواد الليل يتبدد قليلًا خلف السطوح جهة الشرق. أغلقت الباب خلفها ووقفت لحظة تصغي. وأدركت أنها تسمع صوت قبرة بعيدًا في الأعلى. وفي الجانب الآخر من القرية غنى طائر السُمنة أولى أغنياته القليلة. لكن الهيئة العملاقة اختفت.

ثم مسّ وجهَها شيء برفق وسقط على الأرض. رفعته ورأت أنه زهرة كف الثعلب.

وفي اللحظة نفسها شمت رائحة مريعة شبه عطنة، وعرفتها في الحال: إنها رائحة الطين في المستنقع. وظنتها تفوح من زهر كف الثعلب، لكنها ملأت الجو كله، فنظرت إلى أعلى.

كان رأس ضخم داكن له عينان هائلتان ينظر إليها، عند طرف البيت. وقالت في نفسها إنه يقف في مدخل السيارة أمام المرأب.

سارت لوسي بأناة إلى طرف البيت، وهي ترنو إلى أعلى. وها قد وجدته، جالسًا ليس واقفًا، يسند ظهره إلى حائط البيت. من هنا تفوح الرائحة إذًا. كأن هذا الكائن الضخم خلق بكامله من الوحل الأسود، وتلتصق به أعواد القصب وخيوط الجذور. اكتفت لوسي بالنظر إلى الوجه الذي بادلها النظر. واعتراها حماس عظيم،

كأنها مسافرة بأقصى درجات السرعة. هل جاء هذا الشيء من البحر وخاض في مياه المستنقع؟ تذكرت الوجه الشبيه بالفقمة في كابوسها، وجه الفتاة ذات العينين الشبيهتين بعيني الفقمة، والصوت الحاد الخاقب ينادي: «نظفيني». هل قال «نظفيني»؟ هل هذا هو معنى زهور اللبن؟

عرفت لوسي ماذا تفعل. فكت خرطوم المياه العائد لأبيها، الموصول سلفًا بصنبور خارجي، وفتحت الصنبور حتى آخره، وضغطت بإصبعها على فوهة الخرطوم ليتدفق الماء تدفقًا قويًا.

عندها ظنت أنها سمعت صوتًا ثانيًا، صوتًا مدويًا ناعمًا، كصوت رعد بعيد. لم تعرف مصدره على وجه اليقين. كان صوتًا غريبًا، أو له تأثير غريب في لوسي. إذ جعلها تشعر بالأمان والشجاعة. خُيّل إليها أنها سمعت:

«لا تضيعي الوقت».

عندما أصاب الماءُ الساقَ القريبة منها، رأت لمعانًا وبريقًا تحت الطين. كان شبيهًا بالمعدن، معدن أسود صقيل. زال الطين عنه سريعًا، لكنها مهمة كبيرة. وتساءلت لوسي عمًا سيقوله الناس بعد طلوع الضوء ورؤيتهم هذا. غسلت الرجل الأقرب إليها والقدم العملاقة والأصابع الغريبة. ورشت الماء بين الأصابع. استهلك غسل الساق الأولى من الماء ما يكفي لغسل سيارة كاملة.

جاء الصوت مجددًا، منخفضًا جدًا كأنه يتردد داخلها:

«أسرعي!»

أحاط لون زهري خفيف بالمداخن جهة الشرق. كأن كل عصفور في القرية يغني. ومرت شاحنة.

وجهّت لوسي خرطوم الماء إلى الوجه. كان وجهًا مهيبًا يشبه قناعًا طينيًا رطبًا كبيرًا أسود. فتحت اليد العملاقة راحة كفها إلى أعلى مبسوطة على مدخل السيارة. رأت لوسي ما تريده، فصعدت إلى اليد التي

رفعتها قريبًا من الوجه.

أزَّ خرطوم الماء في الشقوق العميقة المحيطة بالعينين المغمضتين بقوة وعلى الحناءات الخدين. ووجهت لوسي الماء إلى الشفتين المضمومتين الهائلتين، فانفتحت

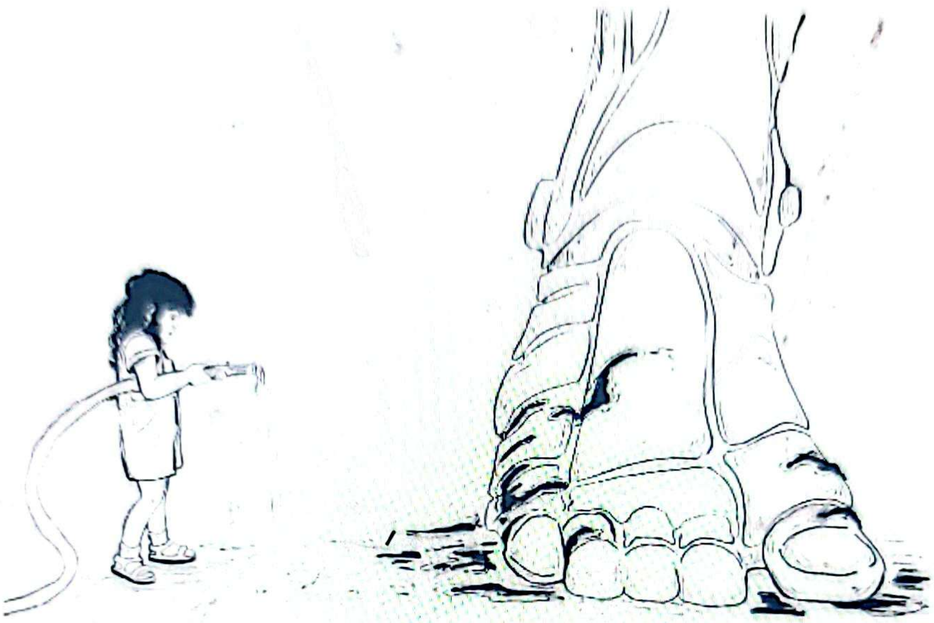

العينان السوداوان اللامعتان، وابتسمتا لها. ورأت لوسي أن هذا الشيء الضخم هو امرأة. خيل إليها أن تيار الماء القوي من الخرطوم كان ينحت هذه المرأة العملاقة السوداء اللامعة من جرفٍ طينه أسود. وسددت الماء أخيرًا إلى الشعر، لفافات ضخمة من الأسلاك في هيئة مشعثة. وأغمض الوجه الكبير عينيه وفتح فمه وضحك ضحكًا هادئًا.

رأت لوسي الماء الموحل يرتذّ على جدار البيت الأبيض المكسو بالحصى وأدركت أن النهار يوشك على البزوغ. استدارت ورأت شعاع شمس أحمر كجمرة بين بيتين. ومرت شاحنة نقل، وعرفت أنها لن تتمكن من إنهاء العمل.

نهضت العملاقة ولم تزل ممسكة بلوسي في يدها. وسمعت لوسي الصوت يدوي في مكان ما قائلًا: «مزيدًا من الماء». فتركت الخرطوم، الذي التفَّ من تلقاء نفسه في هيئة مريحة وواصل تلويه على مدخل السيارة.

قالت: «القناة هناك».

دفعتها اليد العملاقة الأخرى برفق، حتى وقفت في انثناءة الذراع الكبيرة، مثل دمية بالغة الصغر. لم يكن الوقت مناسبًا للاهتمام بأمر الطين أو رائحته. فرأت ضوء غرفتها يمضي وراءها، أدنى منها قليلًا، ولم تزل النافذة مفتوحة عندما استدارت العملاقة نحو الشارع.

وصلتا إلى القناة، ووقفتا على الجسر تنظران إلى أسفل، فشعرت لوسي فجأة بتأنيب الضمير. كانت القناة شبه خالية من الماء، لسبب ما، كما لم ترَها من قبل. وبين منحدرات الطين الرمادي الجاف، بركة طويلة سوداء مزيتة. وانطمرت في الطين عجلات دراجة هوائية صدئة، وعربات تسوُّق وهياكل أسِرَّة وعربات أطفال، وثلاجات قديمة وغسالات، وبطاريات سيارات وسيارتان قديمتان أو ثلاث، إلى جانب مئات من قطع الخردة الصدئة الملتوية، وأسلاك متشابكة، وعلب وقوارير وأكياس بلاستيكية. نظرت كلتاهما هنيهة. وشعرت لوسي أنها ترى المكان للمرة الأولى. بدا شبيهًا بالقناة عندما كان الماء يملؤه فقط، أما الآن فهو شبه خالٍ، والواضح أنه مكب نفايات.

قال الصوت المنخفض المدوي، هازًا جسد لوسي كاملًا في مكانها: «النهر».

سال النهر خلف قطعة من أرض حراجية، على مبعدة ميل مقابل الحقول. كانت هذه رحلة غريبة في نظر لوسي. سطعت الشمس وصارت كرة حمراء واضحة. ورأت المصابيح تشتعل في بيت إحدى المزارع. وجاء قطيع من الخراف والحملان بحماس إلى ركن قصي، وانتظرت سماع هتاف في أي لحظة.

لكنهما وصلتا إلى قطعة أرض مشجرة، ووجدتا النهر. جرى النهر باردًا عدائيًا في ضوء الصباح الباكر. أنزلت اليدُ لوسي بين أعشاب الضفة، وراقبت مدهوشة خوض العملاقة في عرض النهر، حتى ارتفع الماء وأصدر فقاعات بالقرب من الرجلين الشبيهتين بأعمدة

الجسر. جثت العملاقة وسط النهر وانحنت وغطست تحت السطح. وارتفع تل عظيم من الماء المزبد لحظة. ثم ظهر الرأس والكتفان بلون أسود لامع، وغطست مجددًا كما يحدث لدى إنزال سفينة إلى الماء. انحدرت الأمواج إلى الضفة وبللت لوسي حتى ركبتيها. بدا الأمر هنيهة كأن وحشًا بحريًا عملاقًا خرج، ينهض ويغطس في ماء موحل هائج.

نهضت العملاقة سريعًا وجاءت إلى الشاطئ، وقد زال الطين كله عن جسدها ولمع كالزجاج الأسود. لكن وجهها الكبير تلوّى كأنها تتألم. بصقت الماء وندت عنها أنة مدوية.

قالت لها لوسي: «لقد غسلك النهر. أنت نظيفة!»

لكن الوجه واصل محاولاته في بصق الماء، وإن لم يكن في الفم ماء يبصق.

سمعتها لوسي تقول: «إنه يحرق! إنه يحرق!»، وأطبقت الأصابع الضخمة في قبضتين، وفركت عينيها وعصرتهما.

استطاعت لوسي الرؤية بوضوح في ضوء النهار. ونظرت إلى الأنابيب التي تشكّل أطراف العملاقة، وملايين المسامير، والتغضنات الغريبة عند المفاصل. كان صعبًا عليها أن تصدق ما تراه عيناها.

قالت: «أأنت إنسان آلي؟»

وقالت لنفسها ربما كان أحدهم يسيطر على هذا الكائن من بعيد، من لوحة تحكم مؤلفة من صفائح مدرجة. ربما كانت غواصة على هيئة إنسان. ربما...

لكن الصوت المدوي خرج من الأرض، من بين ساقي لوسي:

قالت: «أنا لست إنسانًا آليًا. أنا الشيء الحقيقي».

كان الوجه ينظر إليها وطوّقت العينان الكبيرتان والبؤبؤان الأسودان الهائلان لوسي، كتطويق رقيق ليد دافئة. الجسم كله شبيه بالإنسان الآلي، لكن الوجه

مختلف بصورة ما. كان يشبه وجه تمثال ضخم من المعدن، صنع من أجزاء تتراكب عند الحركة. انفتحت الشفتان من جديد، وأغمضت لوسي عينيها، وارتجفت قليلًا في اهتزازات الصوت الغريبة:

«أنا امرأة حديدية».

همست لوسي قائلة: «امرأة حديدية!»، وهي تحدق إليها ثانية.

أردف الصوت قائلًا «وأنت تتساءلين عن سبب قدومي».

هزت لوسي رأسها موافقة.

علا الصوت فجأة وغضب قائلًا: «بسبب هذا!»

جفلت لوسي عندما انفتحت العينان أكثر وهما تحدقان إليها.

لم تفهم لوسي مقصدها فقالت: «ماذا؟ بسبب ماذا؟»

دوى الصوت قائلًا: «اسمعي».

استمعت لوسي. باتت الأرض كلها في محيط الأفق تفور وتمور بغناء الطيور، مثل مقلاة كبيرة.

سألته قائلة: «الطيور؟ أسمع...»

«كلا!». لمعت العينان السوداوان، وتوهج داخلهما ضوء أحمر. فتسلل الخوف إلى نفس لوسي فجأة. ماذا تقصد؟

تصدع الصوت المدوي إلى ما يشبه الصراخ: «اسمعي اسمعي». امتدت يد كبيرة وطوقت كتفي لوسي، كما يضع والدها ذراعه حولها، بينما اليد الأخرى، بإبهامها وسبابتها الضخمتين، أمسكت بيدها وشدتها برفق وحزم، مثلما أمسكت زهرة اللبن من قبل بأناقة.

دام خوف لوسي لحظات، ثم استحوذ عليها ما سمعته. صوت غريب رهيب، دوي، صرخات، آلاف، ملايين الصرخات، نحيب وآهات وصيحات. أغمضت عينيها ووضعت يدها الطليقة على أذنها. لم يتغير شيء. كان الصوت الرهيب يخبط جسدها، كأنها تقف تحت شلال منه، كأنه يخضها من قدميها. أو كأنها تقف في نفق سكة حديد، والقطار السريع قادم نحوها، قطار سريع من أصوات الصياح.

لم تعد تقوى على الوقوف أكثر، فأخذت تصرخ. فتحت عينيها وهي تحاول جرّ يدها الطليقة وأن تتحرر من اليد التي تطبق على كتفيها. لكن الإبهام والسبابة أمسكاها بإحكام، وشددت اليد قبضتها عليها. كانت العينان الكبيرتان السوداوان المدورتان الثابتتان، تحدقان إليها طوال الوقت. كانت عينا لوسي مفتوحتين، وقد اقتربت الصرخات والصيحات والنحيب والآهات واقتربت، وعلا صوتها وعلا حتى أدركت أنها سترتطم بها كالقطار السريع وتجرفها معها.

في تلك اللحظة تركتها الإصبعان واليد، وتوقف

الصوت كأن شيئًا ما أطفأه.

وقفت لوسي تلهث من الخوف، وأخذت تركض إلى أي مكان يبعدها عن مكان وقوفها. لكن العينين الهائلتين، نصف المفتوحتين قد رقّتا مجددًا.

صاحت لوسي: «أوه، ما كان هذا؟ أوه، إنه مروع!» وشعرت أنها ترتجف وعرفت أنها ستنفجر بالبكاء. لا يزالُ الطنين يملأ أذنيها.

قال الصوت: «ما سمعته هو ما أسمعه طوال الوقت».

صاحت لوسي من جديد: «ولكن ما هو؟»

- ذلك هو صراخ المستنقع، صراخ الحشرات والطفيليات، الديدان والقريدس وبعوض الماء، الخنافس وسمك الأبراميس وسمك الفرخ وسمك الشبوط والكراكي وثعبان الماء.

- إنها تصرخ.

- صراخ الأخاديد والبِرك. بكاء الضفادع والعلاجيم وسمندل الماء. صراخ الأنهار والبحيرات. كل الكائنات تحت الماء، وفوق الماء وكل ما بينهما. طيور الماء والفئران والجرذان والقنادس. هل سمعت بمَ يصرخ كل أولئك؟

استولت الدهشة على لوسي. رأت في خيالها ملايين الكائنات، كل الدوييات تتشبث بالصخور والأعشاب تحت الماء، فاغرة أفواهها تصرخ كلها. والسمك -رأت المواكب الكثيفة من الأبازيم والمشابك المختلجة اللامعة، وملايين من الأعين ذات الحلقات الذهبية، وشفاهها البارزة ممطوطة عريضة- يزعق. تذكرت فجأة كيف فركت المرأة العملاقة عينيها متوجعة، وفكرت في الضفادع المبتلة بمثل رطوبة الأعين، حارقة، تدعك أعينها بأصابعها المطاطية الشبيهة بأصابع البشر. وثعبان الماء، ذلك الثعبان. فهمت الأمر الآن، لقد كان تلوي الثعبان الصامت زعيقًا.

- ماذا يحدث؟

رفعت المرأة الحديدية ذراعها اليمنى وأشارت إلى النهر بسبابتها. بدا الطنين في أذني لوسي قادمًا من نهاية تلك الإصبع. نظرت إلى حيث تشير الإصبع. دار النهر ودوّم كالسابق. غير أن حفرة انفتحت فيه، حفرة ساخنة، ورأت شيئًا يتحرك في قاعها.

كان ثعبان الماء مجددًا. كما رأته من قبل، ها هو يتلوى وينعقد ويحل نفسه. لكنه قادم نحوها، كأن الحفرة الساخنة نفق. لقد اقترب منهما كثيرًا، في فم الحفرة الغريبة. سمعت صراخًا، وعرفت أنه صراخ ثعبان الماء، وفي صراخه كلمات. تبينت بعضها فقط. وأصاخت سمعها لتسمع الكلمات الصادرة عن ثعبان الماء الذي بدا كأنه يتلوى ويحترق في أتون حامٍ. واحترق أمام عينيها وتوهج وتفحم، وأصبح شكلًا

كامدًا مدخنًا، خيط دخان دوار، ثم فرغت الحفرة.

وظهر في قاع الحفرة الساخنة شكل آخر، قادمًا نحوهما في رقصة متلوية.

كانت سمكة بربيس. رقصت كأنها تمشي على الماء على ذيلها المهتز، تتمايل وتلتف لتحافظ على توازنها. رأت لوسي المجسات الصغيرة على ذقنها تخبط قرب فمها وهي تتمايل وتدور في الحفرة الساخنة. وكان البربيس يصرخ أيضًا، كان يصيح أو يزعق بالأحرى، بالشيء نفسه مرة بعد مرة. لكن لوسي لم تتبين الكلمات، وأصاخت سمعها مجددًا لتمييزها، فتلوى البربيس وتحول إلى دائرة من الدخان واختفى كما فعل ثعبان الماء. غير أنها رأت في قعر الحفرة كائنًا آخر، وكان قندسًا هذه المرة.

جاء القندس يتمايل ويتعثر نحوها، إلى أول النفق المتوهج في رقصة متلوية، كأنه يحاول الهرب من نفسه. وبينما هو قادم كان يصرخ بشيء كما فعل ثعبان الماء والبربيس قبله. سمعت لوسي الكلمات تعلو، وهو يقترب منها راقصًا، حتى دار وتحول إلى كتلة دخان في فم الحفرة واختفى.

تلاه طائر الرفراف. جاء الطائر الصغير الآسر يتلوى ويصرخ حتى تحول إلى وهج من الدخان كالألعاب النارية التي تدور على مسمار.

تلاه ضفدع. اكتفى الضفدع في رقصه بالقفز والسقوط على ظهره. ثم نهض على قدميه وقفز وسقط على ظهره مرارًا وتكرارًا، كأنه في جوف فقاعة ملتهبة دوارة، في داخل الحفرة الساخنة. لكن صوته عالٍ واضح، صيحة باكية كالكلمات التي سمعتها المرة بعد الأخرى. لم تتبين لوسي الكلمات بعد، إلى أن صار الضفدع خيط دخان وتلاشى.

خرج بعدها شيء يتقلب لم تميزه لوسي. وأصابتها الدهشة لما عرفته. كان طفلًا بشريًا. بدا أشبه بسمندل زهري سمين، يرتج ويخبط داخل فقاعة متوهجة.

ولكنه مثل الكائنات الأخرى، دخل النفق الساخن وأدى رقصته الشبيهة بالشجار وهو يركل ويزحف شاقًا طريقه خارج الفقاعة المتوهجة. لم يكن الصراخ يشبه الكلمات هذه المرة، بل كان بكاء، عويلًا يائسًا لرضيع بشري يبكي كأن العالم قد انتهى.

لم تُطِق لوسي رؤية المزيد، فقد عرفت أن هذا الرضيع سيتلاشى فجأة متحولًا إلى لهب، يتقد في دوامة من الدخان ويتبدد. دفنت وجهها في يديها، واهتز كتفاها من نشيجها.

تمالكت نفسها فقالت في نفسها: ربما كان هذا كابوسي وقد عدت إليه. إذا بذلت جهدًا أكبر، سأستيقظ ويكون كل شيء على ما يرام. ورفعت نظرها إلى أعلى.

ربما تمنت أن ترى غرفتها في العلية وفيها حقيبة فيها خمس دمى بوم محشوة، ولكن هذا لم يحدث. بل رأت أمام عينيها العمودين الأسودين لساقي المرأة الحديدية. وذاك هو النهر البارد، وسمعت تلك الأصوات الغريبة بأذنيها، ذلك الطنين وقد خفت قليلًا وداخله تغريد الطيور.

كانت المرأة الحديدية ترنو إلى ما وراء الشجر.

- ماذا حدث؟ أوه ما خطب كل شيء؟

هز الصوت المدوي الهواء برفق حولها وسمعته يقول في هدير منخفض:

- هم. هم. هم. هم من فعلوا هذا، وقد جئت للقضاء عليهم.

حملقت العينان الكبيرتان السوداوان إلى لوسي، كانتا سوداوين ولكنهما محمرتان ولهما وهج كامد. وجاء الصوت مجددًا، أعلى قليلًا كأنه انفجار بعيد: للقضاء عليهم!

وكرر مرة أخرى بصوت أعلى حتى كاد الهواء أو أذناها أو رأسها تتصدع. تشنج جسدها كاملًا، كأن

طائرة حربية قد هدرت فجأة فوق قمم الأشجار بعشرة أقدام.

- القضاء عليهم!

تساءلت لوسي بشدة عمّن يكونون. من الذين تقصدهم؟ من «هم»؟ وكانت ستطرح سؤالها على المرأة الحديدية، لولا أنها رفعت قدمها فوق الأرض وظنّت لوسي للحظة مرعبة أن هذه الكائنة العملاقة الرهيبة قد جنت، كما يجن الفيل وستدوس عليها وتسويها بالأرض. ونزلت القدم بقوة، واهتزت ضفة النهر. رفعت المرأة الحديدية القدم الأخرى، ورفعت ذراعيها، تقبض راحتي يديها العملاقتين وتبسطهما. نزلت قدمها وانتفضت الأرض. توهجت عيناها بلون أحمر فاقع، كلون إشارة المرور عند الخطر.

بدأت الهيئة الضخمة بالرقص بأناة على ضفة النهر، ترفع قدمًا عملاقة وتخبطها بالأرض ثم ترفع الأخرى. بدأت تدور ببطء، وكان صوت خبط قدميها شبيهًا بقرع الطبول البطيء، يتردد صوته في جسدها الحديدي. رقصت وغنت بصوتها المروع، كأن لوسي تتعلق بذيل طائرة حربية وراء الطائرات الأخرى:

أقضي على أهل التلوث

الجهلاء

أقضي على أهل التلوث

الجهلاء

أصحاب النفايات.

أقضي على

أصحاب النفايات.

لم تكن تغني بل تصرخ وتتأوه، كأنها نسيت أمر لوسي. كان مشهدًا لا يصدق. فالمرأة بحجم عدد من الفيلة الضخمة وقد صارت واحدًا، وها هي تجهد نفسها، ويزداد غضبها اشتعالًا. فقالت لوسي في نفسها: لا بد أنها تقصد مصنع النفايات. لطالما ساور القلقُ

الناسَ من تلويث المصنع لكل شيء. ستعمل على تسوية المصنع بالأرض، ولن يوقفها شيء.

كان والد لوسي يعمل في ذلك المصنع، بل الجميع يعملون فيه. كبّر المصنع مبانيه قبل شهر، فقد صار يستورد النفايات من كل أنحاء العالم. وهو آخذ في الازدهار، إذ نال والدها زيادة جديدة في الأجر.

فكّرت في الوقت نفسه في ملايين الصرخات التي سمعتها من كائنات الماء والرضيع البشري داخل جسد المرأة الحديدية. فلا عجب إذن أن تزمجر وتتلوى حرقة في رقصها المخيف. كانت كل الكائنات تصرخ بداخلها، وخرج الصوت من فمها كهذا الدوي المروع. لا بد أن الجميع سمعوه على مبعدة أميال. وربما جُنت المرأة الحديدية حقًّا أمام ناظريها، بسبب آلام كائنات الماء المحترقة المتلوية الصارخة في جوفها.

تمايلت لوسي في وقفتها، فقد جاءت العتمة مسرعة من كل الجهات، فسقطت مغشيًّا عليها. ورقدت هناك فاقدة الوعي والأرض من تحتها تهتز وترتج.

مكتبة إيلينا
Elena book

-٣-

أفاقت لوسي من إغماءتها، واختفت المرأة الحديدية، لكن آثار قدميها العملاقتين موجودة. وصلت لوسي إلى البيت، فوجدت الخرطوم لا يزال يرش المياه على ممر السيارة. أغلقت الصنبور فرأت زهرة كف الثعلب وحملتها.

فتحت باب البيت خلسة، وسمعت والديها في المطبخ. ونجحت في التسلل والصعود إلى غرفتها في العلية دون أن يرياها. كان مصباحها مضاء ونافذتها مفتوحة، وهنالك وجدت زهور لبن الثلج.

وضعت زهور لبن الثلج في كوب صغير فيه ماء أولًا، ثم وضعت زهرة كف الثعلب في زَهرية زجاجية رفيعة طويلة فيها ماء، وجلست بعدها على سريرها.

ماذا عليها أن تفعل؟ هل تشبه المرأة الحديدية الرجلَ الحديدي في شيء؟ احتفظت لوسي بصفحة من

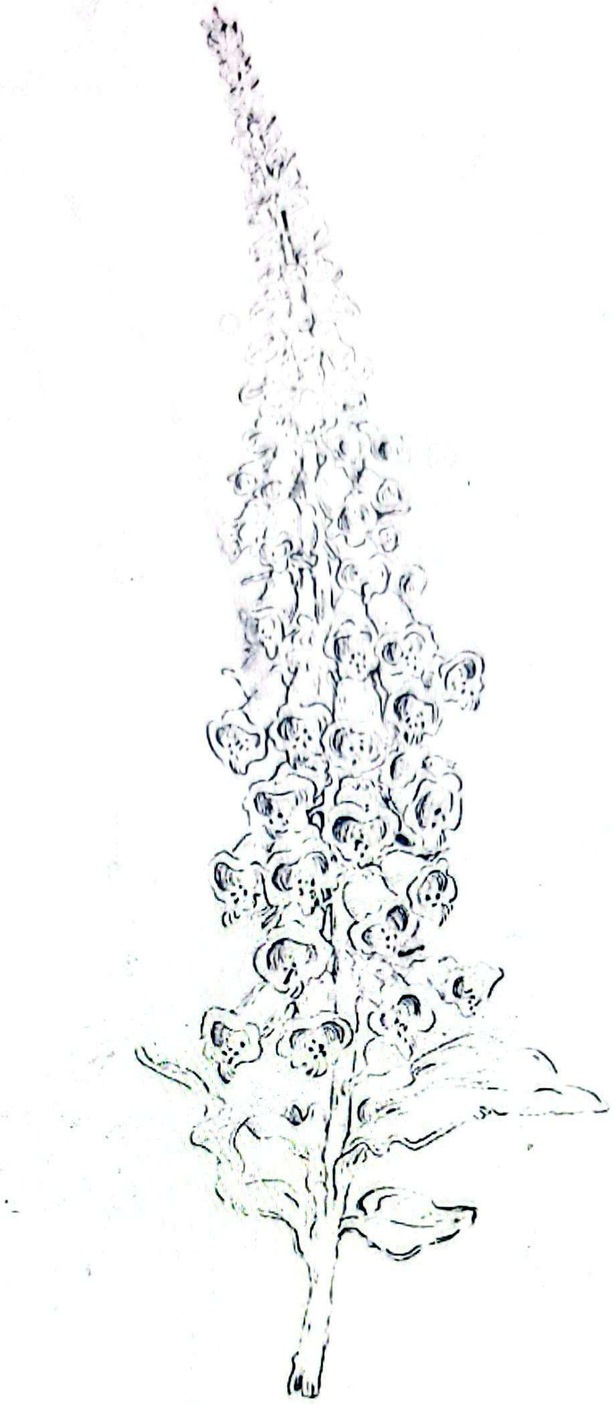

مكتبة إيلينا
Elena book

الجريدة فيها صورة هوغارث، الولد صديق الرجل الحديدي. وذكر فيها اسم المزرعة التي يعيش فيها واسم البلدة القريبة. فكتبت إليه رسالة، وصفت فيها كل ما جرى مع المرأة الحديدية في ثلاث صفحات. بدأتها بقولها: «أنت الخبير بأمور الرجل الحديدي وأنا أحتاج إلى مساعدتك»، وأنهتها بقولها: «أسرع بالقدوم من فضلك وإلا حطمت المرأة الحديدية المصنع الذي يعمل فيه أبي وقتلت كل الناس».

وألصقت بالرسالة إحدى زهور اللبن الثلجية إلى جانب توقيعها، ورسمت حولها حلقة وسهمًا يشير إلى كلمة دليل. ثم أضافت: «ملاحظة: تستطيع التخييم في بستاننا، هذا ما يفعله الآخرون. وقُل إنك تود مراقبة الطيور في المستنقع مثلما يفعل كثيرون».

أرسلت الرسالة بالبريد، وأخذت تبحث عن المرأة الحديدية. وقالت لنفسها: ربما تعيد النظر إن عرفت أن أبي يعمل في مصنع النفايات. أو ربما ستهد المصنع بعد عودته إلى البيت. أنا صديقتها في نهاية الأمر، وهي التي جاءت إليّ لأغسلها. أخذتها إلى النهر، فأرتني الكائنات وهي تصرخ. لم تعثر لوسي على أثر للمرأة الحديدية، على الرغم من قضائها شطرًا طويلًا من اليوم في البحث.

عادت إلى النهر لتعاين آثار الأقدام، وأثار حجمها وعمقها الخوف في نفسها أكثر. وظنت أنها قد تقودها إلى مكان ما، لكن هذا ليس صحيحًا. لا بد أن المرأة الحديدية قد ذهبت إلى منبع النهر أو مصبه، تخوض في الماء عندما تركت لوسي. إذا ذهبت إلى المنبع، ستصل إلى مصنع النفايات. ولكنها ربما ذهبت إلى المصب، عائدة إلى المستنقع أو البحر.

شعرت لوسي بالارتياح بعد أن عاد والدها إلى البيت ذلك المساء. هل عليها أن تخبره بكل شيء؟ لعله يستطيع تحذير المصنع بطريقة ما. كانت تعاني من صداع شديد عندما أخلدت إلى الفراش، لكنها لم تذكر شيئًا مما حدث مع المرأة الحديدية. عرفت أنها يجب أن تخبر أحدًا، لكنها لم تستطع. لن يصدقها والداها، عرفت أنهما لن يصدقاها. بل سيطرحان عليها أسئلة لا تحصى، وسيظنان أن سوءًا اعتراها، بل قد يودان اصطحابها لرؤية طبيب.

لم تنم إلا قليلًا، وعرفت أنها تنتظر. رقدت هناك تصغي وتسمع أدق نأمة. تركت النافذة مفتوحة قليلًا كي تسمع أكثر. لم تغب ذكرى صراخ الكائنات ورقصها الرهيب عن ذهنها. وكلما فكرت في الأمر، اشتد خوفها أكثر. ربما كانت المرأة الحديدية مجنونة حقًا. ماذا قصدت بقولها: «القضاء عليهم»؟ مرت ساعات الليل بطيئة.

بدأت القبرة بالغناء، ويعلو غناؤها في الظلام. قالت

لوسي لنفسها حالما يطلع النهار سأعود إلى البحث من جديد. وغطت في النوم وبدأت تحلم.

ومثلما حدث من قبل، ارتقى أحدهم الدرج قادمًا إلى العلية، على عجل هذه المرة. انفتح الباب بقوة. مرة أخرى انحنت فوقها الفتاة الغريبة التي تلطخ وجهها وشعرها وذراعاها بالوحل الزلق كالزيت، ذات العينين السوداوين الكبيرتين، وأخذت تهزها بكتفها وتصرخ قائلة: «أسرعي، أسرعي. تعالي معي الآن».

قفزت لوسي من فراشها في حلمها.

كانت كلتاهما تقف على طريق المستنقع، والوقت فجر. تعلقت الشمس الحمراء بالسماء فوق المستنقع، أكبر من الشمس الحقيقية. كان ثعبان الماء يغطي الطريق لسبب ما، وخطر للوسي أن شيئًا أثار خوفه وأخرجه من المستنقع. وانحنت لتنظر إلى واحد، فبادلها النظر بعينين بشريتين كبيرتين سوداوين لامعتين كعيني الفتاة. وانتبهت إلى أنها حافية، لكن الفتاة شدتها بذراعها. رفعت لوسي نظرها إلى حيث تشير الفتاة.

كانت المرأة الحديدية تنهض من المستنقع تحت الشمس الحمراء. ووقفت منتصبة القامة حاجبة الشمس بهيئتها السوداء. وخرجت إلى الطريق والوحل يتسايل منها ومشت نحو البلدة.

أدركت لوسي ما الذي يحدث. لكن المرأة الحديدية وصلت وكانت لوسي متأخرة جدًا. بحثت عن الفتاة، لكن مر بها فجأة جمع من النساء الصارخات. كان مصنع النفايات ينفجر كأنه موقد هائل صنع من قنابل نارية. وحامت في الجو شبكات من الأنابيب، وارتفعت السطوح كالأجنحة، تنبعج وتتساقط في رشقة من ألسنة اللهب الحمراء المتأججة وطوفان من الشرر. وقفت المرأة الحديدية وسطه، وهي تقتلع مباني المصنع من الأرض.

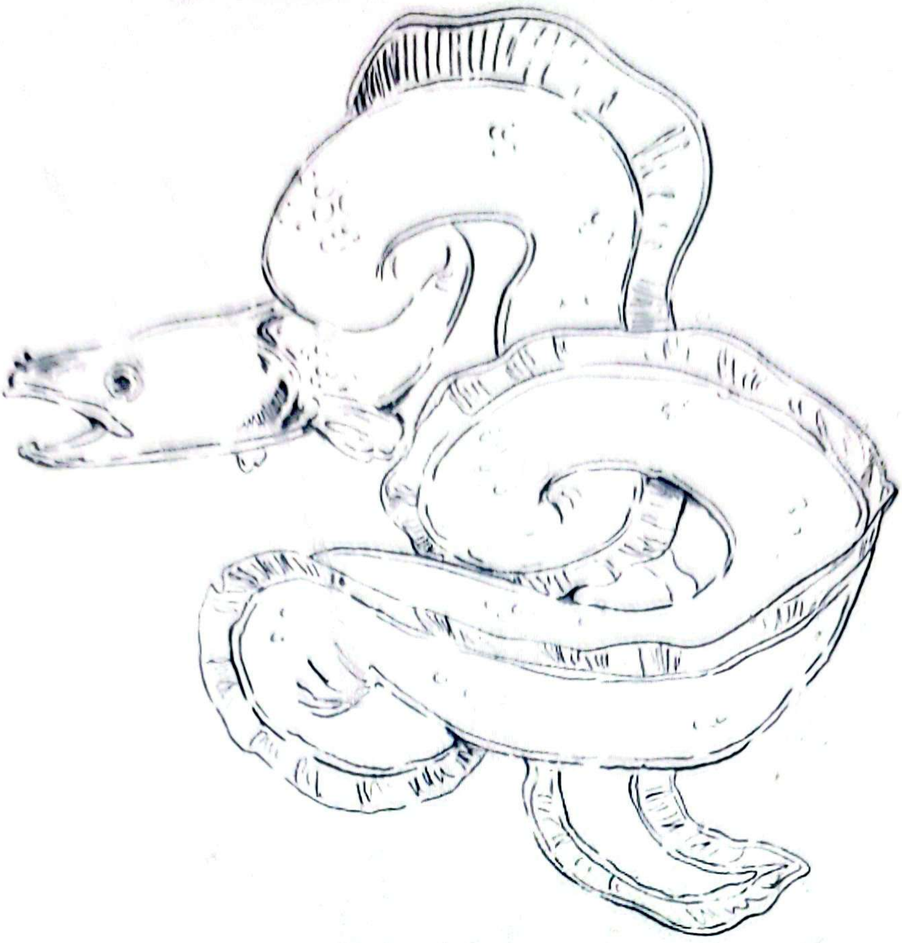

وقذفت بالحطام في كل اتجاه كأنها مجنونة في حقل فراولة تقتلع النباتات. وقفت لوسي وحدها بثوب النوم حافية يضربها ويدفعها حشد النساء المذعورات الهاربات.

ورأت أن النار مشتعلة في المرأة الحديدية، لكن هذا لم يوقفها لحظة. بل بدت سعيدة بالأمر. وبدأت ترقص رقصتها المخيفة، وتقتلع أبراجًا خشبية وترميها جانبًا، وتركل الهياكل الخشبية في الهواء، وقد حددتها ألسنة اللهب. كانت شبيهة بعملاق يركل ويدوس، وينثر نيرانه وهو يحترق.

رأت لوسي قطعة هائلة من ممشى فولاذي ينقذف نحوها في الهواء. وكان لديها متسع من الوقت لمعاينته وهو يزدادا اقترابًا. تعلقت به أشكال صغيرة لرجال، وحاولت أن تعرف ما إذا كان والدها بينهم. نعم، كان هناك. رأته بوضوح، يمسك بعارضة خشبية، والتفت ونظر إليها مدهوشًا وهو يسقط نحوها.

استيقظت وهي تصرخ وتسقط من فراشها كأن تلك الكتلة المثلمة من الحواجز والعوارض الفولاذية بحمولتها من الرجال المتعلقين بها قد تقع على

وسادتها. وقفت قرب النافذة ترتجف، لم تزر كابوسًا يشبه هذا من قبل. ولم تجرؤ على إغماض عينيها خشية أن الأمر لا يزال يحدث داخلها وخلف جفنيها.

كان الصباح فائق الهدوء، وسمعت غناء القبرة خافتًا وبعيدًا في الأعلى. من النافذة رأت الليل حالك الزرقة، وعلى الأسكفة وراء الستارة، دلّت زهرتا لبن الثلج رأسيهما متجاورتين فوق حافة الكوب الصغير، ولا تزالان تغطان في النوم.

منذ أن اشتهر هوغارث بفضل الرجل الحديدي، تلقّى رسائل من كل أصناف الناس، غير أن هذه الرسالة أغربها. جلس على فراشه يعيد قراءتها وينظر إلى زهرة اللبن.

كثيرًا ما تساءل عمّا إذا كان للرجل الحديدي أقارب في مكان ما. لا شك أنهم مختبئون، في حفرة طينية عميقة ربما، أو في البحر، أو في باطن الأرض. لقد جاء الرجل الحديدي من مكان ما، فلا عجب أن يوجد غيره.

ما أثار حيرة هوغارث هو الكلام عن صراخ الكائنات، ضجيج الزعيق القادم عبر يد المرأة الحديدية حين تلمسك. بدا شبيهًا بالتيار الكهربائي، وبدا خطرًا، بل بدت المرأة الحديدية خطرة برقصها، وأغنيتها المجنونة «سأقضي عليهم».

أجل، عليه الذهاب، فهو الخبير موجه العملاق الحديدي. ثم ماذا سيكون رأي الرجل الحديدي في الأمر؟ خطر لهوغارث أن الرجل الحديدي وحيد. ولكن عليه أولًا أن يذهب ويستطلع الأمر؟

كان الابتعاد عن البيت بضعة أيام أمرًا سهلًا في الإجازات. كانت مناطق المستنقعات مشهورة بطيورها، وقد تلقى هوغارث منظارًا هدية في عيد الميلاد. طلب منه والده أن يساعده على إصلاح السياج، ثم غيّر رأيه وقال إنه سيصلحه بنفسه ولا يحتاج إلى مجهود كبير. ذهب هوغارث مع والدته إلى المحطة بالسيارة وحمل معه خيمته وما أعدته أمه من شطائر. نصب خيمته

عند الساعة الخامسة من عصر اليوم في بستان صغير يقع خلف منزل لوسي، التي دلته أين ينصبها. وقدمت إليه والدتها كوبًا من الشاي ودعته لوسي ليرى الطريق المؤدي إلى المستنقع، حيث تقع بركة الماء.

وعوضًا عن ذلك أخذته إلى النهر وأرته آثار الأقدام، وعرف في الحال أنها حقيقية. كانت أصابع القدمين أمرًا جديدًا عليه، فالرجل الحديدي ليس له أصابع متفرقة. وواصل هوغارث طرح أسئلته: «كم يبلغ طول ساقها حتى الركبة؟ ما سمك ذراعها؟ ما حجم يدها مقارنة بجسدك؟»

وتبين له أن المرأة الحديدية بحجم الرجل الحديدي، ولكن أين هي؟ أحب الرجل الحديدي الوقوف بين الأشجار. وراء البلدة، حيث ترتفع الأرض في روابي منخفضة متموجة، رأى هوغارث غابة. لم تبحث لوسي في هذه الغابة، فانطلقا معًا.

مرًا في طريقهما بحطام سيارة في المستنقع، وتوقفا للنظر إليها. بدأ الصدأ يعلوها، فأراد هوغارث أن يصل إليها ليتفحصها. فانتقل من أجمة إلى أجمة من أعواد القصب.

نادته لوسي:

- احذر. كلما توغلت ازداد عمقًا.

- انظري إلى الثقوب، وأشار بيده.

رأت لوسي ثلاثة ثقوب متعرجة متوالية على غطاء المحرك الملوي والجناح.

قال هوغارث:

- هذه الثقوب من أصابعها، في المكان الذي أمسكت السيارة به.

في طريق عودته، خطا خطوة كبيرة إلى أجمة قصب تهاوت تحت قدمه. واستطاع أن يحافظ على توازنه بعد تخبط ورشرشة، لكن الماء بلغ ركبتيه وهو يزداد غوصًا. وتمايل ليخطو خطوة أو اثنتين وعلق وهو

يغرق مجددًا. قفزت لوسي إلى الضفة وتمكنت من الإمساك بيده الممدودة.

وحالما بدأت تجره إلى بر الأمان تجمد كلاهما وتبادلا النظرات.

- أتسمع؟ هذا هو الصوت.

فغر هوغارث فاه دهشة. كان يغوص ببطء لكنه لم يصدق ما تسمعه أذناه. بدا كمن رأى شيئًا عجيبًا في السماء خلف رأس لوسي، وصاحت مرة أخرى أعلى من الدوي المصمّ في أذنيها:

- هذا هو. هذا هو الضجيج. إنها الكائنات.

اندفع هوغارث بقوة وزحف على الأرض المعشبة وأفلت يدها. توقفت الأصوات في اللحظة التي افترقت فيها يداهما.

كان هوغارث يلهث، كأنه كان يجري في حقل. وأجال نظره فيما حوله كالمجنون في كل مكان.

- هل انتهى الأمر؟ لقد سمعت الأصوات كلها، استطعت سماعها كلها، بل إني أرى أشياء.

- أليس مروعًا؟ هل تسمع طنينًا في أذنيك؟

هز هوغارث رأسه بالإيجاب. كانت عيناه مفتوحتين، كأنهما بلا جفنين. شعرت لوسي بخوف أكبر وهي تنظر إليه. ربما كان الأمر مخيفًا أشد بكثير مما ظنت، وأكثر ترويعًا.

حملق إليها وشد يدها فجأة. أغمضت لوسي عينيها بقوة عندما جاء الصوت من جديد، كأنه اشتعل مثل مصباح متوهج في عينيها. أو مثل مكبر صوت انفجر في سماعتيها. كان يؤلمها كخبط هائل على كل جسدها في الوقت نفسه.

مكتبة إيلينا
Elena book

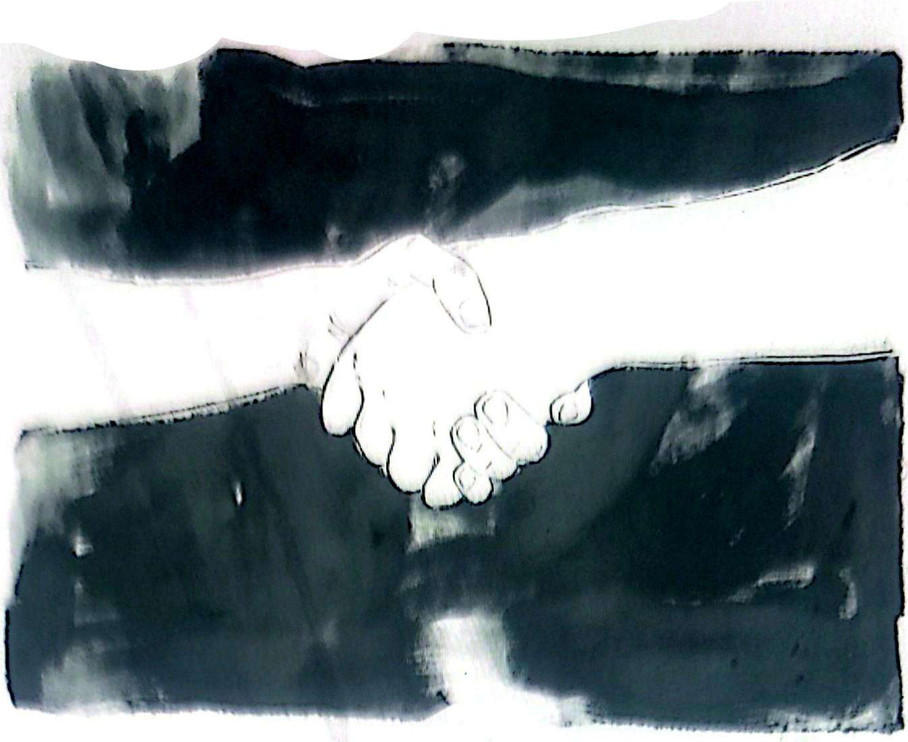

ترك يدها فتوقف الصوت.

- يحدث ذلك عندما تمسك يدي. عندما تتلامس أيدينا.

احتارت لوسي، وكانت مفزوعةً لا تقوى على التفكير. كان حماس هوغارث مخيفًا. كأن الأصوات؛ صراخ الكائنات لا يكفي، بل زاده هوغارث سوءًا.

أمسك معصمها بيده اليمنى من جديد دون أن يحذرها. وتبادلا النظر عندما طوقهما الضجيج الفظيع، والعويل والزعيق والنحيب والآهات والصراخ. ثم افترقا وفي آذانهما طنين.

- هل هو بداخلي أم بداخلنا كلينا؟ ما الذي يحدث؟ علينا أن نجدها.

واستأنفا سيرهما. ربما في وسع المرأة الحديدية أن تشرح لهما معنى هذا كله. لم يعرف هوغارث ماذا يفعل بحماسه.

- الأمر مُعدٍ. لقد انتقل إليكِ من المرأة الحديدية، وانتقل إليّ منك. وإذا أمسكت بأحد، فسيسمعه هو الآخر. وهكذا دواليك. تخيلي الأمر!

لم تجرؤ لوسي على التخيل. ما الذي سيحدث إذا لمسها والداها؟

وجدًا في سيرهما متجهين نحو الغابة.

بحثا في الطرف القريب من الغابة، لكنهما لم يعثرا على شيء، ولا على آثار أقدامها هناك.

- ربما لم تعُد هنا. ربما جاءت وذهبت. ربما لم تكن حقيقية.

نظرا في اتجاه البلدة والمستنقع والبحر، وقد خيم الظلام. استشعر هوغارث بخيبة الأمل تتسلل إلى نفسه.

- كلا. إنها حقيقية.

- ما دامت رحلت، فربما لم تكن موجودة في المقام الأول.

أمسك هوغارث بيدها.

لو نظر إليهما أحد لما رأى إلا ولدًا وبنتًا يتماسكان بالأيدي في الغابة. ولكن في نظرهما كان الأمر كأنهما محبوسان في نفق يلصقان ظهريهما بالجدار، وقطار سريع يمر بهما ويبعد عن وجهيهما أشبارًا.

تبينت الأمور بجلاء لهوغارث، كما تبينت للوسي. لقد رأى في كل صرخة من الصخب المدوي المرعب وجهًا مضطربًا، فمًا مفتوحًا واسعًا، جسدًا محدودبًا. وعلى الرغم من أنه كان يحدق إلى الطرف البعيد من البحر، كان كأنه ينظر إلى الأرض، ويراها تغص بكل نوع ممكن من الكائنات، وكلها تصرخ وتنوح بكل قوتها، حيث كان صوت أصغر قريدس شبيهًا بصوت فيل مجنون، وصوت سمك أبو شوكة كصوت البر الحبيس، وصوت الطفيليات الرفيعة السود كصوت جؤار التماسيح.

انتزعت لوسي يديها أخيرًا وسدت بهما أذنيها.

- لنرَ مصنع النفايات. لنلق نظرة عليه.

كان المصنع في الغسق شبيهًا بمدينة صغيرة مستقلة، تتلألأ فيها آلاف المصابيح. تصاعد الدخان من ثلاثين مدخنة إلى الهواء الساكن ثم تباطأ كأن سقفًا يعلوه، متحولًا إلى بساط طائر فوق البلدة. خبط المصنع كأن

محرك سيارة ضخمة يشتغل تحت غطائها المرفوع. وعرفت لوسي أنه يغص بالناس من الداخل.

بني خارج البلدة بجانب النهر. اكتفى في بداية أمره بسحق المركبات القديمة للحصول على الخردوات. ثم بدأ بإعادة تدوير نفايات محددة. وكبر المصنع وبدأ بإعادة تدوير كل أشكال النفايات. وها هو يجمع النفايات من البلدان الأخرى. وكبر المصنع وضم محارق تعمل ليلًا ونهارًا. وصار أكبر، وضم صفوفًا من براميل الوقود التي طليت بكل الألوان، وكدست في أكوام متمايلة، تملؤها النفايات المجهولة من مختلف الصناعات ومختلف البلدان. وترددت على المكان قافلة من الشاحنات المميزة، تأتي بالنفايات أو تخرجها لكبّها في أماكن أخرى.

عمل كل أهل البلدة والقرى المجاورة هنا. وكانوا يسمونها شيكاغو.

وقف هوغارث ولوسي على الضفة المقابلة. ورأوا في الضوء الخافت الأنابيبَ تصب الرغوة من جانب المصنع. أحصت لوسي خمسة عشر أنبوبًا. وفاحت من النهر رائحة غريبة، كالطعم المر لنصل السكين. لكنها عرفت أن الرائحة تتغير كثيرًا.

فجأة جاء صوت غطى على هدير المصنع، فنظرا ناحية مصب النهر. ظنه هوغارث أجمة من الأشجار تتحرك. وجاء الصوت مجددًا، عويل مُدوٍّ كصوت صفارة الإنذار.

- إنها هي.

شاهدا المرأة الحديدية قادمة تخوض في النهر. وشاهداها مذعورين تمد يدها وتمسك قمة أسطوانة عالية، كانت شبيهة بخزان غاز عليه شبكة من الأنابيب والسلالم. وعرفا ما يحدث من صرير تحطيم المعدن.

- إذا حطمت الأنابيب، صب كل شيء في النهر.

- أيتها المرأة الحديدية! أيتها المرأة الحديدية!

فوقفت المرأة الحديدية بلا حراك، ولاحت هيئتها أكبر حتى وقفت فوقهما.

- كنا نبحث عنك. هذا هوغارث، وهو يعرف الرجل الحديدي.

جفت العملاقة على ضفة النهر ونزل وجهها الضخم واقتربت عيناها. نظر هوغارث إلى عينيها السوداوين الغريبتين.

قال لنفسه: كم هي مختلفة! إنها لا تشبه الرجل الحديدي في شيء، بل إن هيئتها مختلفة الصنع تمام الاختلاف.

وما قاله بصوت عالٍ:

- لقد أرسلني الرجل الحديدي، إن لديه خطة وهو يعرف ماذا سيفعل.

بدا لهوغارث أن العينين تبتسمان. وتحول الدوي إلى صوت قال: «بعض الخطط سيئة». كان الصوت شبيهًا بالرعد، قادمًا من كل مكان في وقت واحد ويتبدد في الأفق البعيد.

- لا لا! إنها طريقة لإيقاف أهل النهايات.

نظرت العينان الكبيرتان السوداوان إلى كليهما، وجاء الصوت مجددًا:

- يجب أن يتغيروا، لا أن نوقفهم وحسب.

- لدى الرجل الحديدي خطة لتغييرهم.

لم تعرف لوسي ما الذي يتحدث عنه هوغارث. لم تعرف سوى أن عليها منع المرأة الحديدية من تدمير شيكاغو. ولم يعرف هوغارث ما يفعل أيضًا، بل قال أول ما خطر في ذهنه. أما وقد بدأ، فقد أدرك بأن عليه الاستمرار، وإن كان الأمر برمته كذبة.

- الرجل الحديدي قادم لمساعدتك. سيصل غدًا. تكلم هوغارث بصوت عالٍ جدًا كأنه يكلم أصم. لقد كان يفكر فيما سيفعل.

وقفت المرأة الحديدية منتصبة القامة. رفعت ذراعها وأشارت، ودوى صوتها:

- سأكون في الغابة غدًا. إن لم يأتِ الرجل الحديدي، فسأنهي ما بدأته. سأقتلع المصنع من الأرض ليلة غد. ثم يمكنه أن يأتي ويأكله.

خرجت المرأة الحديدية من النهر وتجاوزتهما، واختفت في الغابة المظلمة.

- إلى البيت. سيقلق والداي.

وعادا وهما يمشيان تارة ويركضان تارة، غير أن هوغارث كان قلقًا، يجب أن يجد هاتفًا.

وصلا إلى كشك هاتف عمومي، وضع النقود وطلب الرقم الذي لا يعرفه أحد سواه. استمع إلى الرنين. الغريب إنه كان يرن حقًا داخل رأس الرجل الحديدي.

ثم سمع نقرة وساد صمت ثم جاءه الصوت الغريب

المألوف: «نعاااااااام».

أخبره هوغارث بكل شيء، وظل يكرر قوله: عليك أن تأتي بسرعة، غدًا.

لم يقُل الرجل الحديدي شيئًا آخر. أمسك هوغارث السماعة، مصغيًا إلى الصمت العظيم، الصمت داخل رأس الرجل الحديدي.

وفجأة؛ نقرة وبررررزا أطفأ الرجل الحديدي الاتصال.

وقفت هوغارث هنيهة. عرف أن الرجل الحديدي لا يحب إكثار الكلام. ولكن هل سيأتي أم لا؟ هل فهم أم لم يفهم؟

أخذ هوغارث منظاره إلى المستنقع الصباح التالي. لكنه انتظر قرب جسر مأدبة القندس، حيث ستلتقيه لوسي. جلس على الضفة فوق المصرف، ناظرًا هنا وهناك بمنظاره. لاحظ بعد برهة أن شيئًا يسبح نحوه في تيار المصرف البطيء. تبين أنه سمكة شبوط كبيرة بحجم كلب كولي. قلّبها بالعصا وجلس ينظر إليها. سمع أن أسماك الشبوط يصعب قتلها، وفي وسعك إبقاؤها على قيد الحياة أيامًا في جراب رطب. لكن شيئًا ما قتل هذه السمكة. كان يحصي الحراشف الكبيرة عندما وصلت لوسي إلى الجسر.

قالت:

- أعرف ما سنفعله. علينا أن نذهب إلى المصنع ونخبر العاملين هناك بأن يتوقفوا. وإن لم يتوقفوا عن صب السموم فإن مصنعهم سيقتلع ليلًا.

- لن يصدق أحد هذا. لن يكترثوا بما نقول.

- بلى سيفعلون. لأني سأبث في قلوبهم الرعب.

- الرعب؟

وحاول انتزاع يده عندما أمسكت بها لوسي، غير أنه تأخر كثيرًا. نعم، نعم، لقد أدرك مقصدها. وكان الأمر مروعًا مثلما يتذكره. كان عليه أن يطوق نفسه، فقد كان ضجيجًا عاليًا منذ البداية، ولا حاجة إلى رفع

صخبه شيئًا فشيئًا. ها هو الدوي -فظيعًا كالعادة- كأنه لم يتوقف قط.

وانتزع يده من يدها.

- هذا ما سيثير فزعهم، إذا كانوا قادرين على سماعه.

- سيسمعونه بالتأكيد. سألفت انتباههم، وكذلك ستفعل أنت.

لم يفصح هوغارث عمّا يفكر فيه، فقد خشي أنه لا يتمتع بقوة الصراخ، وربما هي قوة تتمتع بها لوسي فقط. ولكن ماذا لو أنه يتمتع بها هو الآخر؟ تخيل نفسه يمسك أحد الرجال بكلتا أذنيه ويراقب وجهه والضجيج يدوي داخله، ويغير فكره.

وانطلقا يسيران، وسرعان ما وصلا إلى البوابات الرئيسة لشيكاغو، وكانت مفتوحة على مصاريعها.

تسلل هوغارث ولوسي إلى الداخل متجاوزين هدير الشاحنات وصريرها كأنها تتشاجر للدخول والخروج في وقت واحد، وقد أثارت غيومًا من غبار الخرسانة.

كانت لوسي تفكر: إذا واصلت إخبار نفسي بأني أعرف تمامًا إلى أين أذهب ومن أود أن أرى، فلن يوقفني أحد.

اندفعت داخلة من الأبواب ذات الألواح الزجاجية لمبنى المكتب الرئيس خلف رجل يلبس بدلة ويحمل حقيبة أوراق ويمشي بخطوات متسارعة كأنه لا يملك من الوقت إلا ثواني معدودة للوصول إلى وجهته.

تبعها هوغارث عندما اندفع ثلاثة رجال خارجين من المصعد وجاؤوا يتدافعون إلى صالة الاستقبال يركضون، وخرجوا من الأبواب الزجاجية وهم يعيدون ترتيب ملفاتهم وأوراقهم في أيديهم في أثناء سيرهم، ويتكلمون جميعهم بأصوات عالية في وقت واحد كأنهم وضعوا قنبلة ستنفجر في أي لحظة داخل المبنى وهم يحاولون تمويه هروبهم.

كانت لوسي تعرف ما تفعل. وقال هوغارث لنفسه: إن

والدها يعمل هنا، وهي ملمة بكل شيء. والحقيقة أن لوسي لا تعرف شيئًا، عدا أن عليها البحث عن مكتب المدير والذهاب إليه مباشرة. نظرت إلى الحاجز البائس للنباتات الصناعية ورأت مخطط مبنى المكاتب على الجدار. مشت إليه متجاوزة النافورة الصغيرة وحوضها المليء بالزنابق البلاستيكية، وحذا هوغارث حذوها.

كان مدركًا كل الإدراك أنهما لو اختلسا نظرة ناحية موظفة الاستقبال والتقت نظراتهم، لسألتهم عمّا يريدون، وستكون هذه نهاية زيارتهما. ولقالت لهما: «انتظرا هناك من فضلكما»، ولهاتفت أحدهم الذي سيبلغهم بأنهما لن يتمكنا من مقابلة أحد هذا اليوم. ولفشل هجومهما. كانت موظفة الاستقبال مشغولة لحسن الحظ. وراقبها هوغارث بطرف عينه، منحنية على مجموعة أجهزة الكومبيوتر والفاكس، ويداها تدونان على أكداس الورق كأن أصابعها تلاحق بعضها بعضًا. وضعت الهاتف بين خدها وكتفها، وقمة رأسها الأجعد المطرِق تقول صراحة: يرجى عدم المقاطعة.

كان مكتب المدير يقع في الطابق الرابع. وذهب هوغارث ولوسي إلى المصعد المفتوح، وركب معهما رجلان. ضغطت لوسي زر الطابق الرابع، وضغط أحد الرجال زر الطابق الثاني، وضغط الآخر زر الثالث. لم يتبادلوا الكلام، ونظر كلا الرجلين إلى لوسي وهوغارث لكنهما لم يتفوها بكلمة، وبدا الاثنان غاضبين لسبب ما.

لو أنهما عرفا ما سيحدث لاشتد غضبهما.

كان هوغارث ولوسي بعد لحظات معدودة يمشيان على السجادة الزرقاء في الممر بين الأبواب، وشاهدا في نهاية الممر لوحة نحاسية تحمل الاسم:

ج. ويلز

المدير

طرق هوغارث الباب ببرجمه طرقة واحدة ودخلت لوسي، ووراءها هوغارث، وأغلق الباب.

توقفا. كان المكتب كبيرًا ساطعًا. وكان الجدار

المقابل بكامله نافذة كبيرة تطل على مجموعة البروج والأنابيب التي تتصاعد منها الأبخرة، حيث جمعت ستة مصانع مختلفة في مصنع واحد.

كان الرجل الجالس وراء المكتب يدير ظهره إليهما، وينظر إلى غابة الفولاذ وهو يزعق في الهاتف: «كل شيء ممكن! كل شيء ممكن قطعًا. شعار هذه الشركة المعروف دون كلام هو «ألا توجد كلمة اسمها مستحيل». الأمر منتهٍ. أجل! صحيح! نعم! بالتأكيد! رائع! عظيم! جيد!»

استدار وهو يضحك ويضع السماعة، فرأى هوغارث ولوسي.

كان وجهه كبيرًا وبدا أكبر لأنه يصل إلى قفا عنقه. وتجمعت عيناه وأنفه وفمه في الوسط، كأن الشارب الأشقر قد ربطها بإحكام. لاحظ هوغارث أن أذنيه كبيرتان على نحو غريب. يقول والد هوغارث إن الأذنين الكبيرتين تعنيان الحياة الطويلة، لكن هوغارث رأى أن شدهما سهل.

دهش المدير كثيرًا فلم يراعِ آداب الحديث عندما قال: «من تكونان بحق الجحيم؟» وقد استشعر قدوم المتاعب.

تقدمت لوسي، وأشارت بسبابتها اليمنى إلى شارب الرجل كهيئة المسدس.

- لوّث مصنعكم النهر، وقتل كل الأسماك. إنه يسمم الكائنات، ويسمم المستنقع. عليكم أن توقفوا العمل فيه. اليوم. الآن.

كان صوتها رنانًا.

لم يصدق المدير أذنيه، وقال بهدوء:

- اخرجا من فضلكما. وامتدت يده إلى الهاتف.

لقد اعتاد سماع هذه الاتهامات، وإن لم يسمعها من فتاة ذات وجه غاضب في مكتبه من قبل.

صرخت لوسي بصوتها الغريب الجاد قائلة:

- إن لم توقف العمل هذه اللحظة، فسيدمر مصنعكم. ها قد حذرتك، سيدمر، أو سيحدث ما هو أسوأ.

وتذكرت الرضيع المتلوي في نفق النار وعلا صوتها أكثر قائلة:

- إنكم تسممون الكائنات وأنتم تسممونني أيضًا.

رفع المدير سماعة الهاتف وقال: «مشكلة صغيرة يا جون. أرسل أحدًا إلى مكتبي بسرعة».

وخرج من وراء مكتبه، كان رجلًا عريض المنكبين قوي البنية. بدأ حياته تاجر خردة وحديد، وربّاعًا وعاشقًا لتجريد الحواف الصلبة في الفن ويبتهج في عجن السيارات الأنيقة وتحويلها إلى مكعبات صغيرة. قال هوغارث لنفسه هذه هي النهاية، سيلقي بنا إلى الخارج. ماذا نفعل الآن؟

لكنه تجاوزهما وفتح الباب.

قال موبخًا: «اخرجا!» دون أن ينظر إليهما.

وعندها حدث شيء مدهش حقًا. فقد ركضت نحوه لوسي وجذبت معصم اليد التي تمسك بالباب. أدرك هوغارث معنى هذا، غير أنه ذهل بالتغيير الذي طرأ على وجه المدير. فقد انقبض، كأن قدرًا من ماء يغلي قد صب على ساقيه.

زعق المدير: «آاااااااااه! آاااااااااااااااااااااااااااه!، ودار في أنحاء الغرفة، ولوسي متشبثة به كذئب صغير يجره موظ ضخم.

وقف بالباب فجأة رجل آخر يصرخ: «ماذا يجري بحق السماء؟»

فانتهز هوغارث فرصته، وقال لنفسه سأنقل إليه الصوت ولن يفوته. وقفز ليمسك بأذني الرجل. فأمسكه الرجل بمعصمه، لكن هوغارث استطاع الإمساك بأذن واحدة، ونجح الأمر. فغر الرجل فاه، كأنه طعن في ظهره، وجأر قائلًا: «آه يا إله السماء!» وضرب بظهره على الباب، محاولًا أن يرفع يديه إلى أذنيه الكبيرتين.

ولكن لم يتغير شيء مهما فعل، فبدأ يلوح لهوغارث الذي أغمض عينيه وأطرق برأسه، متجاهلًا الضربات وممسكًا بأذن الرجل. عرف ما يسمعه الرجل لأنه يسمع الصوت هو الآخر.

كان منظرًا بالغ الغرابة في مكتب المدير. يتلوى الرجلان ويتخبطان في الغرفة، يضربان الجدران كأنهما يصعقان بالكهرباء، ككرتين في آلة لعبة الكرة والدبابيس، بينما الولد والبنت يتشبثان بهما وينجران خلفهما.

جاء الآخرون من المكاتب الأخرى على أصوات الصراخ. وكان هوغارث يقاوم ويتلوى بين يدي رجلين رفعاه عن الأرض. وفي الوقت نفسه جاءت أمينة سر شقراء وزمّت شفتيها الزاهيتين وصفعته على وجهه ورأسه بأصابعها النحيلة وهي تصرخ: «أيها الوحش الصغير! أيها الوحش الصغير!»

ولمح ساقي لوسي تدوران في الهواء، وتدافع حولها مجموعة من الناس.

ولكن كل من لمس هوغارث أو لوسي قضي عليه أن يسمع ضجيج الصراخ، دوي الصيحات والآهات، كأن على أذانهم مكبرات صوت وصرخات الكائنات المعذبة تلتف داخل عقولهم. حتى صفعات المرأة أسفرت عن سماعها انفجار الصرخات.

لذا لم يكن الأمر لينتهي بإخراج الولد والبنت اللذين لم يكونا ثقيلين.

ألقي بهما إلى الخارج في نهاية المطاف. ولكن بعد أن جاء كل من في المبنى ليرى سبب هذا الهرج والمرج، وحاول المشاركة في الأمر. وكل تماس مع أي شخص لمس لوسي أو هوغارث تعرض لانفجار الصرخات نفسه. كان الأمر كما وصفه هوغارث، عدوى فورية. احتار الجميع. فرت أمينات السر اللاتي نحين جانبًا مذهولات مما سمعن ورأين. وكلما وقع تماس، بدأ الصخب مجددًا. لم يعرف أحد من أين يأتي الصراخ أو

كيف يأتي أو لماذا.

اندفع الجمع الصاخب خارج الأبواب الزجاجية في واجهة مبنى المكاتب، حيث تمكن هوغارث ولوسي من الإفلات منه. واستدارت لوسي وصاحت قائلة:

- ها قد عرفتم الأمر. ذلك الضجيج هو صراخ الكائنات من سمومكم. لن تفروا منه بعد الآن.

زأر المدير غاضبًا: «اخرجا من هنا!» انثنت ياقة قميصه، وضاعت ربطة عنقه، وتمزق كم سترته. حدث كل هذا بسبب محاولاته للهرب من الصرخات.

- الشرطة في طريقها، وسيهتم رجالها بأمركم.

كان وقع ما حدث على العاملين في المكتب صادمًا. إذ جلست أمينات السر يجهشن بالبكاء، وتنقَّل الرجال من مكتب إلى آخر بأعين محملقة. لم يستطِع أحد شرح الأمر، ولم يستطِع أحد التفكير في أمر آخر. ولم ينجُ أحدهم من حقيقة أن التلامس بينهم سيصعقهم بالصرخات. كأنهم قد تحولوا جميعًا إلى بطاريات صراخ عالية التوتر.

ورأى بعضهم أشياء في أثناء الصراخ بوضوح أكبر مما رآه بعضهم الآخر. وحين سمعوا تلك الصيحة الرهيبة، رأوا كائنات صغيرة بأفواه فاغرة وأعين مخيفة، تتمسك بالعشب أو الحشائش أو الحصى. ولمحوا وجوه الأسماك الغفيرة، كأنهم يرون الأوراق المرفرفة لشجرة مضاءة في ريح عاتية ليلًا، وكل ورقة من الأوراق هي وجه سمكة، يرتعش في صراخها.

لا شيء يفسر الأمر، ولكنه حدث. وشعر الجميع أنهم سيصابون بالجنون.

اجتمع الأشخاص المهمون في مكتب المدير. كبير خبراء الكيماويات ورئيس المحاسبين، ومدير المبيعات وكبير المهندسين، ومسؤول العلاقات العامة. كان منظرهم شبيهًا بمنظر ناس بعد حادث سير كبير. واكتفوا بالتحديق كأنهم مخدرون، أو راقبوا المدير. وأدرك هو أن عليه فعل شيء، ولكن ماذا يفعل؟

قال وهو يستشيط غضبًا:

- يواصل الحمقى حديثهم عن السموم. ما معنى هذا؟ نحن نطبق الأصول المتبعة في الصناعة، ونتقيد بالقوانين. ونقضي حياتنا في تنظيف قاذورات الآخرين و...

ورفع يديه حانقًا. لكن الحاضرين عرفوا أن كلامه ليس بالاحتجاج المعتاد. ما كانوا يفكرون فيه وما أبقاهم صامتين هكذا هو هذا الأمر: إذا تلامسنا مجددًا، ستعود الصرخات الفظيعة المخيفة. ما هي؟ وماذا تعني؟

وفكر اثنان أو ثلاثة منهم: كم سيطول الأمر؟ هل سيزول؟ وماذا لو عدت إلى البيت وقبلتني زوجتي؟ ماذا سيحدث إن قفز إليّ الكلب ملاعبًا؟

ولم يعرفوا بطبيعة الحال أن الأشياء المروعة حقًا لم تبدأ بعد.

عاد هوغارث ولوسي إلى البيت دائخين. فقد نجحت خطتها بصورة ما، لكنهما لم يحققا هدفهما بعد.

قال هوغارث:

- لقد انتقل الصراخ إليهم! هل رأيت وجه الرجل؟ ظننت أنه سيطير ويخرج من النافذة عندما أمسكت بأذنيه.

- هل سيوقف هذا عمل المصنع؟

- ربما! عليهم أن يفكروا في الأمر الآن. كم سيستغرق الأمر حتى يُصم الصراخ العملاق العالم كله؟ وهل سيجرؤ الناس على التلامس؟

أرعبته الفكرة، لكنه شعر برغبة في التدحرج على الأرض من الضحك. كان الأمر مرعبًا، لكنه مذهل، مذهل جدًا! يا له من أمر رائع!

وشعرت لوسي بالخوف من كل ما يحدث هي الأخرى، ولكن الحماس دوّخها في الوقت نفسه. إذا كانت هذه هي الحال، فليس في الإمكان تغيير ما كان.

كان والداها أقل قلقًا مما توقعت. عندما أمسكت بأيديهما وجعلتهما يسمعان ما يتحدث عنه الآخرون، جلسا يستمعان إليها. وأخبرتهما بالأمر كله. وفي أثناء استماعهما، ساورهما شيء من الخوف على ابنتهما.

كرر والدها قوله:

- تقلقني فكرة إغلاق المصنع. فصححت له لوسي بقولها:

- تدميره لا إغلاقه.

- وماذا عن أرزاق الناس؟ الجميع يعملون في المصنع. ماذا سأفعل في رأيك؟

- هذا لا يهم المرأة الحديدية. كل ما يشغل بالها هو الصرخات، بعضها صرخات أطفال صغار.

حدق إليها والداها، وذكرتهما بالكائنات التي جاءت ترقص وتتلوى في نفق النار. تنهدت والدتها وأراحت جبينها على يدها، ونظرت إلى الطاولة.

صاح الأب قائلًا:

- كيف تورطت في كل هذا؟ ولماذا اختارتك أنت؟ كانت التجاعيد على وجهه جديدة غريبة الشكل. انتفش شعره، كأنه نهض من نومه منتصف الليل.

قال هوغارث: سيعرف الرجل الحديدي ما يفعل.

لقد أراد طمأنة والدي لوسي، لكنهما حوّلا أنظارهما إليه وعلى وجهيهما علائم القلق والخوف. وظهرت الحلقات السوداء تحت أعينهما. قال هوغارث لنفسه: أهكذا يكون شكل الناس في أثناء الحرب؟ وسمعوا طرقًا على الباب.

شهقت والدة لوسي وقد بدت مذعورة أكثر من ذي قبل: «الشرطة!»

أجابتها لوسي:

- ولماذا تظنين أنها الشرطة؟ لست أنا من سيقتلع المصنع. أنا لست المرأة الحديدية.

فتحت والدتها الباب الذي وقف أمامه ثلاثة صحفيين

من جريدة البلدة. وبينما يعرّفون أنفسهم، ترجّل آخرون وراءهم من سياراتهم.

أوت العائلة إلى الفراش أخيرًا، لكنهم لم يناموا. كانت رؤوسهم تدور، إذ سيكونون في عناوين الصحف الرئيسة صباحًا. وسيأتي أهل التلفاز قبل الظهر.

وضعت لوسي الكوب الذي يحوي زهور لبن الثلج والزّهرية التي تضم زهرة كف الثعلب بجانب سريرها. إذ تصورت أنها سترى توهج زهور لبن الثلج في الظلام. طرح الصحفيون ألف سؤال، لكنها لم تأتِ على ذكر المرأة الحديدية. ولهذا ظنوا أن الأمر كله بدأ من عند لوسي. وما خلصوا إليه أن البنت تتمتع بقوى غير عادية، وناقشوا فيما بينهم تفسيرات مختلفة.

رقد هوغارث في خيمته، مصغيًا إلى البستان والظلام. كل شيء صامت، وحسَب أنه يسمع هسهسة النجوم. كيف تبدو الكرة الأرضية صامتة هكذا رغم استمرار الصراخ الفظيع؟ أمسك بمعصمه الأيسر. صمت. يجب أن يتماس شخصان كي يبدأ الصراخ. ثم نعبت بومة لونها أغبر فوق خيمته، وانتصب شعر رأسه. فالتف وشد كيس النوم فوق رأسه، وخطر له الرجل الحديدي فجأة. فقد تخيله قادمًا يقطع البلاد في خط مستقيم. فغط في النوم وهو يحلم بالرجل الحديدي، الذي كبر وكبر، حتى فاق المرأة الحديدية في حجمها، وهو يمشي ليلًا، عابرًا الأشجار والبيوت والقمر يسطع على جسده المعدني.

مكتبة إيلينا
Elena book

-٤-

استيقظ هوغارث ولوسي في الصباح الباكر، واتفقا على ما سيفعلانه. كتبت لوسي رسالة لوالديها:

إذا جاء طاقم التلفاز لمقابلتي، أخبراهم بأنني سأكون عند بوابة المصنع في تمام الساعة الثانية عشرة.

وأخذا يصعدان التلال في اتجاه الغابة الواقعة وراء البلدة. ووصلا إلى أرض مليئة بالشوك ووقفا بين الأشجار.

همس هوغارث قائلًا: «انظري!» كان يشير إلى الأرض. أمعنت لوسي النظر إلى آثار أقدام عميقة ضخمة في تراب رطب. وأردف قائلًا: «هذه آثار أقدام الرجل الحديدي، لأنه ليس له أصابع في قدميه، بخلاف المرأة الحديدية».

اقتفيا الأثر عبر الغابة فوصلا إلى الحقل الذي يؤدي إلى رابية. وها هما هناك، يجلسان متقابلين، جسدان ضخمان يديران ظهريهما إلى جذوع أشجار الأرز الكبيرة التي تنبت بين الصخور القديمة على قمة الرابية.

نادتهما لوسي وركضت إليهما: «نحن هنا. ها قد أتينا».

فاستدار الرأسان الهائلان.

صاح هوغارث: «عرفت أنك ستأتي أيها الرجل الحديدي».

قصّت عليهما لوسي كل ما حدث؛ الشجار في المكاتب والصحفيين وطاقم التلفاز القادم اليوم. اتقدت الأعين الكبيرة، فلمعت عينا الرجل الحديدي بلون الكهرمان، وعينا المرأة الحديدية باللون الأسود. ولكن لم يصدر صوت عن أيٍّ منهما.

قال هوغارث:

- ما رأيك أن تأتي ليراك طاقم التلفاز؟ دعيهم يسمعون الصرخات على التلفاز. سيصدقون الأمر،

ويتغير كل شيء.

- أجل، عليك أن تأتي. رؤيتك...

بدأ طنين يصدر عن جوف المرأة الحديدية، وقال الصوت العميق المدوي الرقيق: «لن يتغير شيء».

تبادل هوغارث ولوسي النظر. ما معنى هذا؟ ألن تغير الصرخات الجميع؟ ورؤية المرأة الحديدية الناقلة العملاقة للصرخات، ألن يغير هذا كل شيء؟

قال الصوت العظيم من تحت أخمص أقدامهما: «يحتاج الأمر إلى شيء أكثر».

بُهت هوغارث ولوسي، أي شيء أكثر مما حدث؟

سأل هوغارث: «ماذا نفعل إذن؟»

بدأ الصوت مجددًا، وقال الصوت: «نفعل؟»، ثم كرر بصوت أعلى: «نفعل؟»، وكرر هادرًا: «نفعل؟»

كاد هوغارث ولوسي يسقطان عندما نهضت المرأة الحديدية بحركة واحدة رهيبة. تكسرت الأغصان عندما انتصبت قامتها بين أشجار الأرز. ورفعت ذراعيها ببطء فوق رأسها، وقبضت كفيها وبسطتهما، وهي تمد أصابعها، وتقبضها. رفعت قدمًا واحدة وعلت ركبتها، ثم:

بوم!

خبطت بقدمها، فارتجت الرابية وتردد الصوت في جسدها الحديدي الكبير كأنه طبل. رفعت قدمها الأخرى وأنزلتها:

بوم!

قبضت كفيها وبسطتهما، ممزقة الأغصان بجانبها، وهي ترفع قدميها وتنزلهما. بدأت المرأة الحديدية رقصتها، في الأيكة تحت وابل من الأغصان الصغيرة وأكواز الصنوبر وإبر الصنوبر والفروع الصغيرة، دارت برقصتها وخبطها الهائل، أمام الرجل الحديدي الذي اتقدت عيناه بلون ذهبي ساطع. وغنت بصوتها الرعدي العميق المتأوه: «اقضي على الجهلاء. لن يغيرهم شيء.

اقضي عليهم».

وكررت أغنيتها مرة بعد مرة، على إيقاع خبطات قدميها وهي تدور وتدور. وضعت لوسي قبضتيها على فمها، فقد كانت المرأة الحديدية مخيفة، إنها ساحقة، هائلة.

صرخت لوسي قائلة:

- أمنحيهم فرصة، ولنرَ ما سيقولونه اليوم. «ربما تغيروا».

صاحت بقولها بأعلى صوتها، فوالدها أحد هؤلاء الجهلاء بحسب رأي المرأة الحديدية. لا فائدة. اتقدت عينا العملاقة الراقصة بلون أحمر داكن. وخبطت بقدميها كأنها تود تحطيم الساق كلها.

- لن يتغير شيء. لا يتغير فيهم إلا الكلام. لن يتغيروا. لا يتغير إلا كلامهم. كلامهم فقط كلامهم فقط كلامهم فقط...

وتحول صوتها إلى زئير. وخيل إلى هوغارث أنه يسمع داخل زئيرها صرخات الكائنات ونحيبها وبكاءها، تدوي في الغابة. ومن جديد بدأ يرى الوجوه، كبيرها وصغيرها ودقيقها، والأفواه الفاغرة والأعين المروعة للصرخات.

نهض الرجل الحديدي، وتكلم فجأة. لم يكن صوته عاليًا كصوت المرأة الحديدية، لكنه أخشن وثاقب أكثر.

ورفع يده قائلًا: «لديّ فكرة».

توقفت المرأة الحديدية، وأنزلت ذراعيها ببطء، لكن عينيها اللتين تتوهجان بلون أحمر، ظلتا مركزتين على الرجل الحديدي.

قال بصوته الجاف الخشن: «لن يفيدنا القضاء عليهم». سمعت لوسي المسننات في داخله، كانت تحتك بعضها ببعض لأنه قليل الكلام. وتابع كلامه: «لا يمكنك القضاء عليهم كلهم، وسيعيدون بناء كل شيء كالسابق. مصانع جديدة وسموم قديمة. أناس جدد

بالغباء القديم نفسه، ولن يتغير شيء».

أظلمت عينا المرأة الحديدية. وفي أسفل قريبًا من الأرض، نظرت أعين البشريين إلى أعلى، مدورة كأعين أرنبين.

قال الرجل الحديدي: «أصغِ إلي».

وبدلًا من أن يتكلم، أخذ يد المرأة الحديدية وبدأ يصغي.

قال: «الصراخ رهيب كما ظننت. ولكنه يحتاج إلى شيء إضافي».

وأخذ يد المرأة الحديدية الأخرى، وبات يمسك يديها بكلتا يديه. لا شك أنه سمع صراخ الكائنات من خلال يديها طوال هذا الوقت. ورفع رأسه إلى الوراء ونظر إلى السماء. رأت لوسي أن عينيه احمرتا حمرة شديدة وسطع منهما شعاع أحمر، واضح وقوي رغم نور الصباح الساطع.

لم يحدث شيء لدقيقتين أو ثلاث.

همس هوغارث: «ماذا يفعل؟»

لكن لوسي كانت تنظر إلى السماء. ولم ترَ إلا رقعة زرقاء صغيرة في الجنوب. تلبد باقي السماء بالغيوم، لكنه ساطع تمامًا، في طبقة مجعدة واحدة. غير أن أمرًا غريبًا كان يحدث في الأعلى. بدا شبيهًا بنقطة دوارة داكنة.

همست لوسي مشيرة إلى أعلى: «هل هذا طائر؟»

كلا، بل كانت غيمة داكنة صغيرة. كانت غريبة الشكل، وكانت تنزل خيطًا دوّارًا غريبًا منها. ذيل غيمة دوار، والغيمة كلها أخذت تكبر وهي تنزل وتنزل. بدت شبيهة بإعصار في البحر، لكنها لم تكُن تدور متجهة إلى أعلى، بل نحو الأسفل تشق طريقها نحوهم.

في قدومها سمعوا هديرًا خافتًا، كصوت طائرة بعيدة وراء الغيوم. هذا ما ظنه هوغارث، لكنه أدرك أن الصوت قادم من اللولب الدوّار المظلم في نزوله

والصوت يعلو ويعلو.

وصار طرفه فوق رأس المرأة الحديدية، ومكث هناك برهة كخذروف طويل يلتف ويدوي. أو كحفارة آلية على وشك النزول. كان الهدير مذهلًا، كهدير طائرة وهي تتقدم نحو المدرج للإقلاع. غطى هوغارث ولوسي آذانهما، فقد كان الضجيج مزعجًا.

وشاهدا شيئًا غريبًا في المخروط الدوّار. كأنه يستمر في التوقف لحظة، مثل متزلج يدور على رأس إحدى زلاجتيه ويتوقف لجزيء من الثانية في كل دورة. ومثلما تلمح في نظرة خاطفة واضحة وجه الراقص الدوار، في ذلك التوقف العابر، رأى هوغارث ولوسي الحراشف في غيمة الإعصار العالي.

حراشف!

أجل، ها هي لمحة لها، ثم أخرىٰ وأخرى. إنها حراشف!

وحدث أكثر الأشياء إدهاشًا. لمس عمود الحراشف الدوار المرأة الحديدية بطرفه الثاقب. لمس قمة رأسها.

بدأ جسدها يختفي في الحال، بل إنه بدأ يتذبذب. صار جسدها ذبذبات مشوشة. واختفت يدا الرجل الحديدي، اللتان لا تزالان تمسكان بيديها، في غبش.

كان الإعصار الدوار من الظلمة والحراشف ينصب في المرأة الحديدية في أثناء اهتزازها، وأخذت تكبر.

استمر الأمر دقيقة بعد أخرى، ونزل من المخروط الدوار ظلام أكثر. صارت الهيئة المغبشة للمرأة الحديدية أكبر وأخذت تتوهج بلون أزرق. واستمر ذلك، حتى شاهدا الطرف العلوي مما كان يضرب في السماء كأنه ذيل كبير. وتوقف بعدما انصب في المرأة الحديدية.

صار للدوي صرير أكبر. وفجأة، بصرخة رفيعة ثاقبة كصوت قطار سريع يعبر نفقًا صغيرًا عليه، غطس ذلك الذيل الخابط بداخل المرأة الحديدية واختفى. وخيم صمت سريع صادم.

عاد شكلها إلى الظهور، لكن حجمها ازداد ضعفين، متوهجًا باللون الأزرق كزجاج مصباح أزرق. لا يزال الرجل الحديدي ممسكًا بيديها، ومد ذراعيه إلى الأعلى. وراقبوها وهي تزداد سوادًا، وتنكمش حتى عادت إلى حجمها الطبيعي مجددًا وترك الرجل الحديدي يديها.

قال بصوته الخشن: «الآن، الآن صرت تتمعتين بقوة الوطواط الملاك التنين الفضائي، خادمي القوي من أعماق الكون. لقد أدخل نفسه في جوفك، وصار قوتك».

لم تتحرك المرأة الحديدية، فقد ذهلت بما حدث لها. كانت عيناها نصف مغمضتين، تحدقان إلى الرجل الحديدي الذي تكلم من جديد قائلًا: «يمكنك فعل ما تريدين الآن. إن الوطواط الملاك التنين الفضائي شبه خالد، واحذري عندما تتمنين، لأن أمنياتك ستتحقق. قوته خارقة للطبيعة».

ضحكت المرأة الحديدية بهدوء. وضحكت ضحكة أقوى مدوية منخفضة. وضحكت مجددًا ضحكة أعلى. ثم التفتت فجأة وحدقت من فوق الغابة إلى البلدة. تبين للوسي أنها عقدت العزم على أمر ما.

سألتها لوسي: «ماذا ستفعلين؟» كانت تفكر في والدها، وخافت فجأة مما ستفعله المرأة الحديدية به وبزملائه في العمل.

نظرت المرأة الحديدية إليها من علٍ. كانت عيناها داكنتين زرقاوين عميقتين غاضبتين، بدلًا من لونهما الأحمر أو الأسود. ورأت لوسي أن كل جسدها ازداد سوادًا، وبدا السواد من شدته زرقة. لكن المرأة الحديدية اكتفت بالقول: «لقد انتصف النهار. اذهبي وأنهي مقابلتك التلفزيونية، عند بوابة المصنع».

وضحكت مرة أخرى ضحكتها المدوية الغريبة التي غاصت في باطن الأرض.

شرع هوغارث ولوسي ينزلان الرابية.

وشاهدا بعد لحظات عربات قنوات التلفزة والكاميرات والحشد الصغير في انتظارهما عند بوابة المصنع، فساورهما الخوف.

قالت لوسي: «تذكري الصرخة».

مكتبة إيلينا
Elena book

-٥-

كانت المذيعة شابة جميلة اشتهرت باسم پريمولا. تمايل شعرها طويلًا أشقر لامعًا ثخينًا. ولمع وجهها المتبرج كسمكة استوائية. اشتهرت المذيعة بأنها لا تخاف، وكان السياسيون والمشاهير يخافون من أسئلتها. حدق الجمهور إليها، وهو يراها من كثب نابضة بالحياة. وتوافد مزيد من الناس كلما مر الوقت.

استمعت إلى شهادة ثلاثة من رجال المصنع عما يحدث. ووعدها مدير المصنع السيد ويلز بأن يتحدث إليها لاحقًا. ازداد حماسها وقلقها في الآن نفسه. ما هذه الصرخات المروعة التي يتكلم عنها الجميع؟ لقد نجحت حتى اللحظة في تفادي ملامسة حاملي الصرخة. وكلما سمعت أكثر عن الصرخات ازدادت قلقًا منها.

قال موظف الحسابات: «ها قد جاءا»، وقال للمذيعة إن زوجته قبلته لدى عودته إلى البيت ليلة البارحة وسقطت مغشيًا عليها. وإن ابنه الذي يبلغ من العمر عامين تمسك بساقه، ثم سقط على الأرض وهو يصرخ واستمر في الصراخ، لأن صرخات الكائنات وزعيقها ونحيبها تدفقت إلى الطفل كلما حاول والده الإمساك به وتهدئته. وإن الأمر ازداد سوءًا بعدما استعادت زوجته وعيها، فحملت الطفل الصارخ أولًا لتهدِّئه، لكن الاثنين سمعا الصرخات من جديد، انتقلت إليه منها وانتقلت إليها منه. وبات كل أفراد العائلة مخازن للصرخات. كان ذلك فظيعًا تمامًا، وهذه حال الآخرين أيضًا.

يجب فعل شيء.

فكرت پريمولا وهي تستمع إلى هذا الوصف فيما سيحدث لها إن غدت مخزنًا للصرخات هي الأخرى. كان عمر رضيعها المشهور شهرين فقط، وزوجها طبيب يلمس الناس دائمًا. لم تحتمل التفكير في الأمر. لم يعرض التلفاز شيئًا من هذا القبيل، لكنها تمنت لو أنها

لم تقترب من هذا المكان. فكيف ستخرج منه؟

وها قد وصل الاثنان اللذان بدأا الأمر كله. بنت صغيرة شاحبة وولد غريب أخرق. لكن قوة الصرخات فيهما مذهلة. شاهدتهما پريمولا قلقة وهما يقتربان. لكن لوسي وهوغارث كانا يماثلان پريمولا قلقًا. امتقّت شفتاها الحمراوان مثل إسفنجة مطاطية عندما ابتسمت. وكانا مثل حيواني غابة بريين عندما بلغتهما رائحة عطرها الأنيق القوي.

لقد اتفقا على ما سيقولانه. ومهما كانت الأسئلة التي ستطرحها عليهما، فإنهما سيخبران كاميرات التلفزة بما يفعله المصنع، إلقاء السموم في الأرض لا في النهر فقط، واستيراد نفايات سامة من البلدان الأخرى لردمها في مكان ما، وأثر ذلك في الكائنات الحية التي تسكن الأنهار واليابسة والبحر. ومهما سألتهما هذه السيدة الطويلة التي تشبه حشرة لمّاعة، فإن هذا ما سيقولانه لها أمام الكاميرا.

وهذا الجمع الغفير ممن يحملون آلات التسجيل ويعملون في الإذاعة والصحفيون سيسمعون هذا. وعزمت لوسي على أنها ستمسك بذراع پريمولا وتنقل إليها الصرخات.

بدأت پريمولا بتقديمهما أمام الكاميرا، فسألتهما بصوتها الشهير: «أخبراني باسميكما». ومد الفني مكبر الصوت المغطى بما يشبه الفراء أمام وجهيهما.

بدأت لوسي تتكلم، ولم تذكر اسمها. وعرفت أن عليها قول ما تود المرأة الحديدية منها أن تقوله. وظلت تتذكر الكائنات، والأفواه الفاغرة الممطوطة والأعين الرهيبة. وقف هوغارث مذهولًا من سيل الكلمات الذي تدفق بقوة من فم صديقته الجديدة.

قاطعتها پريمولا وسألتها: «أخبرينا عن هذه الصرخات الغريبة».

تجاهلتها لوسي، وتركتها پريمولا تكمل حديثها. فقد تعجبت من منظر هذه البنت الصغيرة التي تستشيط

غضبًا. وستفهم سبب غضبها عندما تحدثها عن الصرخات.

خامر لوسي أغرب شعور وهي تتحدث، إذ شعرت ألّا أحد يصدقها ولا بد من الاستعانة بشيء آخر. كانت پريمولا تصغي وعلى وجهها ترتسم الابتسامة، عبست قليلًا، لكنها عادت إلى الابتسام. ثبتت لوسي نظراتها على الأكمام الزرقاء، فوق المرفق واقتربت أكثر. وفي تلك اللحظة جاء رجل يشق الجموع.

كان أمين سر الشركة، الرجل الذي ساعد المدير وأمسك بهوغارث. كان شديد الغضب ويصرخ.

«أستميحك عذرًا، لكنك تتحدثين إلى الأشخاص غير المعنيين...»

توقفت لوسي، واستدارت پريمولا إلى الصوت الجديد. اتسعت عيناها عندما رأته، واتسعت عينا الرجل أيضًا، بل صارتا مدورتين تمامًا. وصار وجهه، وهم ينظرون إليه، داكنًا وصار فمه هائلًا وهو ينفتح وينغلق. ثم سقط على الأرض عند قدمي پريمولا. تراجع الجميع عندما تلوّى على الأرضية الأسمنتية كأنه ثعبان ماء ضخم. في الوقت نفسه، رآه الجميع ينزلق خارجًا من الياقة. لقد تحول إلى ثعبان مائي ضخم فعلًا! وسقط بنطاله وسترته خاويين مجعدين. وتلوى ثعبان طوله ستة أقدام ثخين كعنق رجل، وانعقد وانحلّ، مميلًا رأسه إلى هذا الجانب وذاك، مطبقًا فكيه اللذين كانا بحجم فكي كلب إلزاسي، وقد كانا حقًا شبيهين بفكي كلب إلزاسي.

لقد تحول أمين سر الشركة إلى ثعبان مائي ضخم أمام أعينهم.

أطلقت پريمولا صرخة صغيرة مخنوقة وتهاوت. فرح المصور بهذا، فثبت الكاميرا على وجهها المتبرج، وهي تغمض جفنيها المزرقين كأنها نائمة، وانتثر شعرها على الأرضية الأسمنتية القديمة الخشنة. ومنه انتقل إلى الوجه الغاضب الذي يصر أسنانه لثعبان الماء العظيم

على مبعدة شبر منها. وأومضت كاميرات مراسلي قنوات التلفزة، وقرّب أحد الصحفيين مكبر الصوت من الخطم المدبب.

بدأ بقوله بصوت متحمس صارخ قليلًا كالذي يستخدمه المراسلون: «هلا أخبرتنا بشعورك.... آآآآآآآ ااااااه!» أطبق ثعبان الماء فكيه على مكبر الصوت ويد الرجل. وانتزع يده النازفة وتراجع متخبطًا. وأنهض آخرون بريمولا وبدأت تنظر حولها دائخة.

أخذ ثعبان الماء يتلوى على العشب وابتعد كالأفعى إلى النهر، كأنه يعرف ما يفعل. وتمايل ذيله في الهواء في طريقه.

استغرق الأمر كله دقيقة فقط. وبدأ الصحفيون يرطنون فيما بينهم. استعادت بريمولا وعيها وبدأت تصرخ على المصور: «هل صورتَ أي شيء؟»

كان المصور يصور البدلة الخاوية البائسة. وأخذ لقطة مقربة طويلة للحذاء الفارغ، وفيه فردة جورب واحد منقوشة باللونين الأحمر والأصفر فارغة متدلية من جانبه.

تعالى الصياح: «غير معقول! أمر لا يصدَّق! ماذا يحدث في هذه البلدة؟»

راقب هوغارث ولوسي ما حدث دون أن يتفوها بكلمة، فقد أصابهما الذهول الذي أصاب الجميع. لكن لوسي صاحت فجأة:

«انتظروا ما سيحدث!»

بينما يجري هذا، كان المدير السيد ويلز يعقد اجتماعًا مع مالكي ومدير شركة دولية تدعى كلين أپ العالمية [شركة التنظيف العالمية]. تمثَّل عمل الشركة في نقل النفايات السامة من بلد إلى آخر. وكلما واجه بلد صعوبة في التخلص من النفايات، تقدمت شركة كلين أپ العالمية لإنجاز المهمة. وكان لديهم طرائق مختلفة لإخفاء المواد، فردموها في بلاد بعيدة لا يعترض فيها أحد على ذلك. وألقوا بعضها في البحر، وبعضها الآخر

في مكب النفايات، وبعضها في المناجم القديمة. بعضها في حفر كبيرة تحت الحقول التي حفروها في أي مكان استطاعوا إقناع المزارعين بالسماح لهم بذلك، وأحرقوا بعضها.

كانوا يوقعون اتفاقية مع السيد ويلز، وسينقدونه جنيهًا إسترلينيًا عن كل طن إذا تخلص من مليون طن من النفايات الكيماوية السامة الخاصة. مليون طن!

كانوا جالسين حول مكتبه، وقد وقّع الاتفاقية وأخذ يحدق إلى الصك. كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها ١٠٠٠٠٠٠ جنيه مكتوبة على صك. كان النادل يصب لهم الشراب، ثم سيتناولون الغداء في غرفة الاجتماعات. رفع السيد ويلز كأس الشراب، وقال:

«في صحة شركة كلين أب العالمية».

ورددوا وراءه: «في صحة شركة كلين أب العالمية». ورفعوا كؤوسهم وهم يبتسمون ابتسامات عريضة.

أنزلوا كؤوسهم وتطعموا بمذاق الشراب على ألسنتهم، ورأى الرجال الأربعة من شركة كلين أب العالمية شيئًا مستحيلًا. رأوا وجه السيد ويلز يتحول إلى اللون الأرجواني كلون التين الناضج. وقعت كأسه وتدحرجت على الطاولة، وانقلب هو إلى الأمام وغطى صدره الصك الذي كان ينظر إليه بإعجاب. نهض الرجال الأربعة وأوقعوا الكراسي، هل كان السيد ويلز يعاني نوبة قلبية؟ أو تشنجًا؟ كلا، لم يعد هذا السيد ويلز.

صاح مدير المبيعات في شركة كلين أب العالمية: «يا إلهي! إنها سمكة سلورا ويا لها من سلورا!»

نظر الأربعة إلى الرأس العريض الفظ الأرجواني اللامع البارز من ياقة السيد ويلز البيضاء المتفتقة. وشاهدوا العينين الصغيرتين الشبيهتين بأزرار مصنوعة من مادة كالجلد. وشاهدوا المجسات تتثنى حول فمه.

ثم تمايل بسقطة ملتفة ثقيلة، وها هي السمكة كاملة ولا تزال داخل قميص السيد ويلز وسترته، ترقد على

الطاولة. وقع بنطاله مع حذائه وجواربه. وخبط بذيله وشهق مرتين أو ثلاثًا.

أصاب الهلع أحد الرجال الأربعة فركض إلى الجدار الذي أوقفه بخبطة. ثم حاول أن يتسلق الجدار، فأسقط صورة كبيرة للمصنع فوقه.

تناهى إلى سمع الثلاثة الآخرين في الوقت نفسه صرخات وصيحات وهرج ومرج في المكاتب على امتداد الممر. انفتح الباب ودخلت أمينة سر السيد ويلز، كانت تهرب من شيء ما. لم تحاول أن تشرح، بل اكتفت بالصراخ. إذ تصارع خلفها أسدا بحر كبيران ليسبق أحدهما الآخر إلى آخر الممر وهما يهدران: «ووينك! ووينك!»

ورأت أمينة السر سمكة السلور وتهاوت على الأرض، وجلست تنشج.

اندفع الرجال الأربعة خارجين من المكتب لكنهم توقفوا عند الباب. ركضت أمينات السر في كل اتجاه وهن يصرخن ويبكين. وتبادل الصياح المديرون التنفيذيون الصغار ذوو الأعين المحدقة والشعر الغريب العجيب كالشوك. حمل أحدهم سمكة حفش كبيرة بطوله، كان رجلًا رابط الجأش إذ قال: «هذا هو السيد پلوتتزكي! يجب أن نضعه في الماء. ساعدني على إيصاله إلى النهر».

يا لها من فكرة رائعة! تبين الرجال الأربعة من شركة كلين أپ العالمية ما يحدث. وقال أحدهم: «سنفهم الأمر لاحقًا! خذوا السيد ويلز إلى النهر». فعادوا إلى المكتب عندما اندفعت ثعابين مائية متشابكة خارجة من أحد المكاتب وزحفت على امتداد الممر وهي تخبط بذيولها.

كان الموظفون في كل أنحاء المبنى يتحولون إلى كائنات ذات زعانف تخبط وتوقع سلال المهملات وخزائن الملفات.

قال النداء: «إلى النهر».

- جانيس! دافني! هلا أمسكتما ذيلًا؟

- هل تستطيعين ذلك يا جين؟

- ساعديني يا جوانا، ساعديني!

الجعجعة كلمة لا تصف كل الهرج والمرج. تحطم زجاج الأبواب، وانقلب أثاث المكتب وسقط، عندما بذلت أمينات السر الرشيقات جهدًا في حمل أسماك لها طول الرجال من كل الأنواع: بربيس، شبوط، سلمون، كراكي، وتعثرن بأكوام الأحذية الفارغة والبنطلونات الفارغة المتشابكة. وساعدت الفقمات والضفادع الضخمة وخنافس الماء العملاقة أنفسها، وكذلك فعلت ثعابين الماء الكبيرة.

تدافع كل العاملين في مكاتب المصنع وتعثروا وخبطوا وتزحلقوا ناحية المخرج: «إلى النهر! إلى النهر!»

ومثل جموع غفيرة تتدافع خارجة من أرض الملعب بعد انتهاء مباراة كرة قدم، اندفعوا خارجين من الباب الأمامي لمبنى المكاتب.

هذا ما رأته لوسي عندما أشارت.

زعقت پريمولا: «لا أصدق ما أرى! تصوير! تصوير!» وأخذت تتكلم بصوت عالٍ وتلهث في مكبر الصوت عندما اندفع نحوهم الجمع المختلط من الناس والأسماك العملاقة والحيوانات المائية الثقيلة.

كانت هذه الموجة الأولى فقط، أما الثانية فكانت أكبر بكثير وتضم عاملي المصنع. وقد جاؤوا في جمع مختلط مماثل، رجال يتمايلون من ثقل أسماك ضخمة كانت قبلًا زملاءهم في العمل.

فار النهر عندما ألقت الأجساد الثقيلة بأنفسها في مياهه، أو تزحلقت إليه وهي تختض وتدور. لم يهرب الرجال الذين حملوا أصدقاءهم إلى النهر، بل نزلوا إلى الماء بعد إلقاء زملائهم فيه، وقد تحولوا هم أيضًا في الهواء. كان النهر يمور من الثياب والزعانف الظهرية

بعد تحرر الأسماك منها.

صرخت پريمولا قائلة للمصور: «صوّرهم وهم يتحولون! صوّرهم وهم نصف أسماك ونصف بشر! صوّر وجوههم في لحظة التغيير الفعلي، يا له من مشهد مدهش! لم يحدث من قبل! إنها سابقة! انظر إلى ذلك! صوّر ذلك الرعب، أوه رائع! صوّر الذعر في أعينهم! بديع!»

وتبين للمراقبين أن الرجال وحدهم هم الذين تحولوا، ولم تتحول امرأة واحدة. كما بقي طاقم التصوير والصحفيون على حالهم ولم يتحولوا، يحدقون إلى الوجوه الداكنة المدببة، والأفواه الصلبة الكبيرة تنفتح وتنغلق، والأعين المدورة المدهوشة. لم تخرج كائنات الماء الضخمة، ولم ترغب في الابتعاد. بل ظلت تبرز رؤوسها عند حافة النهر، بمحاذاة الممشي الأسمنتي المجاور للنهر، ترفع رؤوسها وتريح أذقانها على الحاجز الخرساني، تشهق بصمت وتلهث بنعيق جاف، ثم تنزل تحت سطح الماء لتتنفس، بينما أمينات السر وعاملات مقصف الطعام والعطارات، ينظرن إلى الأسفل، والأجسام المحرشفة تدور وتتراكم في رغوة النهر وزبده.

قالت لوسي: «إذا كان ذلك الماء يؤلم عيني المرأة الحديدية، فتخيل ما سيفعله بأعين هؤلاء وبخياشيمهم».

ألقت سمكة سلور كبيرة نفسها في الهواء وهي تهز رأسها، تلتها سمكة بربيس عملاقة، ثم سمكة حفش. وسرعان ما كانت في الجو ثلاث أسماك أو أربع في الوقت نفسه، تهز رؤوسها وخياشيمها وتغضن أجسادها، بينما اندفع ثعبان الماء من الماء كالصاروخ ونزل تحته مجددًا.

قال هوغارث: «إنها تحاول الخروج من الماء، لكنها لا تستطيع».

قالت لوسي لپريمولا: «إن ماء النهر يسممها كما

أخبرتك. انظري إليها. إنه يسممها».

قالت پريمولا: «إنها محقة. هذا نهر العذاب! انظروا إليها. صور ذلك!»

لم يحتج المصور إلى أن تملي عليه ما يفعل. كانت كاميرات الأخبار تومض بلا توقف. وقفزت الأسماك العملاقة الحائرة من الماء وغطست تحته، أو أدارت رؤوسها على الحافة الخرسانية بقدر ما استطاعت الاحتمال قبل أن تغطس رأسها لتتنفس في الماء المسموم، غير قادرة على إغماض أعينها عديمة الأجفان في المواد الكيماوية الحارقة.

إذا كانت پريمولا قد رأت كل ما ظنته ممكنًا، فقد أوشكت على رؤية أكبر الصدمات.

سمعت إحداهن تقول: «انظروا، انظروا!». نطقت المرأة الكلمات، واستشعرت پريمولا من صوتها المخيف غير المصدق أن شيئًا لا يخطر على البال قادم. فأدارت رأسها، إلى حيث تشير ذراع. فرأت فوقها المرأة الحديدية.

حدق كل الصحفيين والمصورين والنساء لحظة. وتصاعد زفير لاهث غريب.

كانت المرأة الحديدية رائعة، شديدة القرب وهي تعلوهم، وخلفها الرجل الحديدي. وسمع الجميع الكلمات المدوية:

«أوقفوا عمل المصنع. دعوا النهر يستعيد نقاءه، وإلا ماتت كل هذه الكائنات».

اخترق الصوت المدوي الهادر أجسادهم.

قال صوت: «إنها محقة. أوقفوا عمل المصنع».

أدركت النسوة أن في وسعهن فعل شيء، فقلن: «أوقفوا العمل الآن. أوقفوا كل هذه المواد التي تصب في النهر. هذا أول ما تفعلونه».

ثم صاح صوت آخر، وكان صوت رجل: «لا يمكن فعل هذا. لن أسمح بهذا الأمر». كان أحد الرجال العاملين

في المصنع ولا يزال على هيئته البشرية، إنه كبير المهندسين.

ردت امرأة: «أنت الرجل المطلوب. أرِنا كيف نوقف الآلات».

أجابها الرجل وكان عنيدًا:

- لن أسمح بذلك. لن نستطيع...

جذبته أيدي النساء بتلابيبه وبشعره وبذراعيه، وكان بين أيديهن نصف محمول ونصف مسحول عائدات به إلى المصنع. ولم تضيع النساء الوقت. إذا لم يخبرهن بما يفعلن، فإنهن سيقطعنه إربًا كدمية كبيرة.

وفي غضون ساعة توقفت آلات المصنع كلها، وفصلت عنها الكهرباء وانطفأ كل شيء.

تذمر كبير المهندسين قائلًا: «سيكلفنا هذا أموالًا طائلة. ستتعطل نصف آلات المصنع. لا يمكنكن إطفاء كل شيء وتأملن خيرًا».

ردت عليه النساء: «بلى يمكننا، وقد فعلنا سلفًا».

«لا بد أن أكتب تقريرًا مفصلًا...»

وقبل أن يتم حديثه انقلب على الأرض، وقد برز من ياقته رأس عملاق لسمكة كراكي وباتت ملابسه فضفاضة مثل جراب عريض. ودارت عيناه المسطحتان اللامعتان هنا وهناك.

فقال صوت: «لنأخذه إلى النهر، فليتجرّع سمومه».

فحملته النساء إلى النهر، وأخرجنه من ثيابه وألقين به إلى الجمع المتخبط للأجساد المندفعة، حيث اختفى بخبطة عالية من ذيله العريض.

هل كانت هذه النهاية؟ كلا. الطريق طويل.

تحول الرجال إلى أسماك عملاقة وسمادل عملاقة ويرقات حشرات عملاقة، وكائنات مائية عملاقة، ليس في البلدة وحدها بل في كل أنحاء البلاد. كل رجل يفوق عمره الثامنة عشرة كان في الماء، وإذا أتمّ أحدهم الثامنة عشرة ذلك اليوم، فإنه ينقلب وقطعة

الكيك لا تزال في فمه.

وحين لم تتمكن النساء من أخذ أزواجهن إلى الأنهار أو خزانات المياه أو البِرك، وضعنهم في أحواض الاستحمام وحمامات السباحة. كان في كل حمام في البلاد سمكة بربيس أو كراكي ضخمة أو سمكة من نوع آخر لها حجم الرجل. أو برغوثة ماء ضخمة، أو طفيليات هائلة الحجم. كان السيد ويلز السلور في حوض سباحة يقع في بيته الكبير الجديد. وقضى ولداه الصغيران وقتهما في البحث عن الديدان ورميها له، ليشفطها من فوق البلاط الأزرق بفمه الفظ الكبير.

كان رئيس الوزراء يرقة يعسوب يبلغ طولها ستة أقدام، في حوض الاستحمام في مقر إقامته الواقع في ١٠ شارع داوننغ. وجاءت إليه مساعدته كل ساعة لتبلغه بآخر المكالمات الهاتفية، لكنه اكتفى بالتلويح بقرون استشعاره لها وتحريك فكيه الغريبين لإراديًا. كان والد لوسي سمندلًا عملاقًا. أخذته والدتها من النهر بالسيارة، وهو الآن في حوض الاستحمام. واضطر إلى ثني ذيله المحزز المتوّج قليلًا ليكفيه الحوض. أطعمته طعامًا للقطط، وكان إطعام هذه الكائنات مشكلة كبيرة، لا سيما ما كان منها في النهر.

هاتف هوغارث أهله. تحول أبوه إلى ضفدع أخضر لامع صغير له حنجرة منتفخة، وكان بين أغصان الأسل المستنقعية قرب بركة البط.

كانت كارثة وطنية بلا شك. وبهت الناس في باقي أنحاء العالم، فقد كانت المشاهد المعروضة على قنوات التلفزة لا تصدق. سافر الخبراء في بادئ الأمر من بلدان أخرى ليساعدوا في إدارة أمور البلاد. لكنهم يتحولون حالما يخرجون من الطائرة وتطأ أقدامهم أرض المطار. وتمكن الذين تحولوا إلى ضفادع أو فقمات أو حتى أسماك شبوط من العودة إذا كانت ثيابهم مبللة ولم تكن الرحلة طويلة. لكن الأسماك الأخرى يجب أن تبقى في أقرب مسطح مائي، وهكذا انتهى الأمر. واضطرت

النساء إلى تدبير الأمور بأنفسهن.

توقف كل شيء بسرعة كبيرة. فقد انقطعت الكهرباء، لذا تعطلت أجهزة الكومبيوتر، وانطفأت شاشات التلفاز. نفد الوقود، ولم تعُد المضخات في محطات الوقود تعمل. انقطعت الاتصالات. لن يتمكن هوغارث من العودة إلى بيته، إلا إذا عاد سيرًا على الأقدام. وقد نفد الطعام والشموع في المتاجر.

كانت والدة لوسي حائرة وقالت: «ماذا سيحدث؟ لا يمكننا أن نعيش على الديدان وماء المطر. ماذا سيحدث لوالدك المسكين؟»

أصاب اليأس هوغارث ولوسي أيضًا. لقد خرج الوضع عن السيطرة، وستصيب البلاد مجاعة قريبًا. وحتى لو ألقت الدول الأخرى الطعامَ بالمظلات، فإن هذا لن يعجب المرأة الحديدية.

صعدا الرابية وعبرا الغابة. يجب أن تساعدهما المرأة الحديدية، فهذا كله من صنع يدها. عليها الآن أن تعيد الأمور إلى نصابها.

قال هوغارث: «ربما أدرك الناس الدرس. لعلها اكتفت بما فعلت. لعلها تعيد الجميع إلى هيئاتهم الطبيعية».

غير أن أغرب الأشياء لم يقع بعد.

مكتبة إيلينا
Elena book

-٦-

ها هما، الهيئتان المألوفتان، يجلسان متقابلين بين الصخور وأشجار الأرز الكبيرة على قمة الرابية. أخبرهما هوغارث ولوسي بكل ما جرى، وأن الأمور تزداد سوءًا كل لحظة. وأن الناس سيتضورون جوعًا قريبًا. لكن الأعين الكبيرة في الوجهين العملاقين نظرت إليهما من علٍ دون حراك. ودوّى صوت المرأة الحديدية قائلًا:

«لم يتعلموا الدرس بعد. يجب أن يتعلموا ويتغيروا».

أجابتها لوسي: «بلى تعلموه، تعلموه حقًا. إن الناس في حال بائسة».

قالت المرأة الحديدية: «سأعرف عندما يتغيرون. سيحدث أمر، سيحدث أمر محدد».

سألها هوغارث: «ماذا؟ كيف نعرف ما هو؟»

- ستريان، أو ربما يجدر بي قول إنكما ستسمعان.

ماذا تعني؟

رفع الرجل الحديدي عندها إصبعه الضخمة:

- ها قد بدأ.

أصغى هوغارث ولوسي، لم يسمعا شيئًا في البداية. ثم سمعا شيئًا، من غير أن يسمعا شيئًا بعينه. شيئًا يشبه اختلاجًا في الهواء.

نهضت المرأة الحديدية، ووقف الرجل الحديدي بجانبها. وقف الاثنان بلا حراك، يحدقان إلى المناظر ويصغيان.

«أليس البحر؟»

سمعه هوغارث، صوتًا يشبه الأنين والزفرات، ويزداد علوًا. كأن شيئًا قادم نحوهم عابرًا البلاد، ويتأوه في قدومه. وقال هوغارث لنفسه إن هذا القادم أيًا كان، سيكون شاسعًا كالبحر.

رفعت المرأة الحديدية ذراعها اليمنى وأشارت.

انتشرت فوق البلاد غيمة شبكية واطئة، كأنها ضباب داكن. هل كانت الأنات صادرة عن الضباب الغائم؟ كانت الغيمة تكبر وهم يراقبونها، وتثخن وتنتفخ في كتل، كأنها بحر من العصيدة. وفي الوقت نفسه كانت شبيهة بشباك تنعقد وتنفك. وقد غطت البلدة والمستنقع، واقتربت أكثر. وأخذت الآهات تعلو وتقترب، كآهات كائن متعب يئن مع كل نفس.

لم يروا ما يحدث تحت الغيمة، ولم يستطيعوا رؤيته.

تعرضت والدة لوسي لصدمة جديدة، وكانت تذهب لتحدّث زوجها في الحمام قليلًا كل ساعتين. ولم يُجبها، بل رقد هناك شديد السواد، على طول حوض الاستحمام بلا حراك، حتى تنقر حافة الحوض. فيستيقظ ويرفع نفسه عن القاع بنصف التواءة، وتبرز عيناه الجاحظتان من سطح الماء. ويستلقي نصف عائم، واضعًا ذقنه البرتقالي على حافة الحوض، محدقًا إليها وهي تحاول التسرية عنه.

كان صعبًا عليها أن تنظر إلى هاتين العينين المدورتين ذواتي الحلقتين الذهبيتين، وتفكر أنهما عينا زوجها تشارلز.

ولكنها عندما فتحت الباب هذه المرة تدفّق ضباب قاتم في وجهها. لم يكن دخانًا، أو لم يكن له رائحة بالأحرى. كان ضبابًا معلقًا غريبًا، كبيوت عناكب تطفو. أبعدته عن وجهها واكتست يدها به لحظة. كان ظلامًا معلقًا غريبًا، حالكًا كدخان الإطارات المحترقة، ولم تتمكن من رؤية الجدار المقابل للحمام. طاف حولها، وتجاوزها إلى داخل البيت.

ورأته يرتفع في نفثات من الحوض كأنه إشارة دخانية. ورأت الفقاعات تبقبق من فم السمندل العملاق -أو من فم زوجها بالأحرى- حيث رقد في هيئة متثنية سوداء على خزف الحوض الأبيض، مستندًا على أصابعه المطاطية المتفرقة.

نقرت الحوض لكنه تجاهلها. وظهرت فقاعة كبيرة كل ثلاث ثوانٍ وانفجرت في دخان داكن، كانفجار قذيفة صامت ناعم تشكل من خيوط السواد الغريبة غير المتشابكة. شمّرت كميها وغطست يديها في الماء، وهزته برفق. لكنه تجاهلها أيضًا، مطلقًا ثلاث فقاعات كبيرة.

هل هو مريض؟ هل الفقاعات هي بداية النهاية؟ نادته قائلة: «تشارلزا تشارلزا»

وصرخت: «تشارلزا»

رفعته إلى السطح، لم يكن رفعه صعبًا في الماء. كانت قبل هذا تخاف من لمس بطنه البرتقالي الزاهي المرقط بالأسود، كأنه مسموم. لكنها لم تفكر في هذا، بل سحبت ذقنه إلى حافة حوض الاستحمام. ورقد هناك بعينين جامدتين زجاجيتين. انتفخت فقاعة أخرى من شفتيه، حتى انفقأت بنفثة سوداء متشابكة. تراجع مهتزًا وغطس إلى القاع، وظهرت فقاعة أخرى.

كان مركزًا انتباهه في فقاعاته، أيًا كان ما يحدث.

وركضت إلى غرف النوم التي امتلأت بالسواد، وفتحت النوافذ. رأت جارتها السيدة وايلد في الشارع المقابل تفعل الشيء نفسه، والضباب ينساب حولها من النوافذ المفتوحة. تحول السيد وايلد إلى قريدس نهري ضخم وكان في حوض الاستحمام هو الآخر.

نادتها قائلة: «هل يُخرج فقاعات؟ تشارلز يخرج فقاعات غريبة داكنة».

أجابتها السيدة وايلد: «ماذا سيحدث بعد هذا؟ أظنني سأجن».

كان الأمر نفسه في كل بيت. وفي أحواض السباحة وخزانات المياه والبرك، وأينما وجد الرجال المتحولون، كانوا يتجشؤون هذه الفقاعات. وفي كل أنحاء البلاد كان الضباب الخيطي الداكن المفتول يرتفع من أفواه الكائنات الخرساء، كأدخنة متشابكة من نيران صغيرة لا حصر لها.

ارتفع مشكلًا الغيمة الداكنة، تلك الغيمة الغريبة الكئيبة التي ازدادت شبهًا بشبكة واسعة غطت البلاد. ازدادت الغيمة ثخنًا طوال اليوم، بينما راقبها الرجل الحديدي والمرأة الحديدية. اضطر هوغارث ولوسي إلى العودة إلى البيت تحتها في النهاية، وهما لا يزالان يسمعان الأنين المتنهد الغريب الآتي من كل مكان. جلسا وقتًا طويلًا في الحمام يراقبان فقاعات والدها.

خلا البيت من السواد صباحًا. ورقد والد لوسي واضعًا ذقنه على حافة الحوض منتظرًا طعامه. توقفت فقاعاته، وتوقف الأنين في الخارج أيضًا.

لكن السماء مكفهرة، كأنها السماء وقت عاصفة رعدية شديدة. وتعلقت غيمة كثيفة متشابكة زرقاء مسودة واطئة فوق كل شيء. كان الهواء ساكنًا ولم يطِر أي عصفور.

صعد هوغارث ولوسي الرابية مرة أخرى عابرين الغابة، وخرجا فوق الغيمة. ووقف العملاقان كما شاهداهما آخر مرة.

سألتهما لوسي عندما اقتربا: «ما الذي يحدث؟ ما تلك الغيمة الغريبة؟»

وشاهد كلاهما أعين الرجل الحديدي والمرأة الحديدية تسطع بضوء أحمر، أربعة أشعة قوية حمراء، كأشعة الليزر وتوارت في الغيمة المظلمة المنتشرة في الأسفل.

همس هوغارث: «ثمة أمر يحدث».

سمعا صرخة، نشيجًا. كان عاليًا وواسعًا كأنات البارحة، لكنه نشيج. رأى هوغارث ولوسي نتوءًا يتشكل وسط الغيمة فوق البلدة. صار النتوء دائريًا، كأن شيئًا يدفع نحوه رأسًا ضخمًا، وشاهدا عينين كبيرتين جدًا فلم يعرفا في البدء أنهما عينان. وكانت أكثر من اثنتين، وها قد شاهداها ولا مجال للشك. إنها أعين

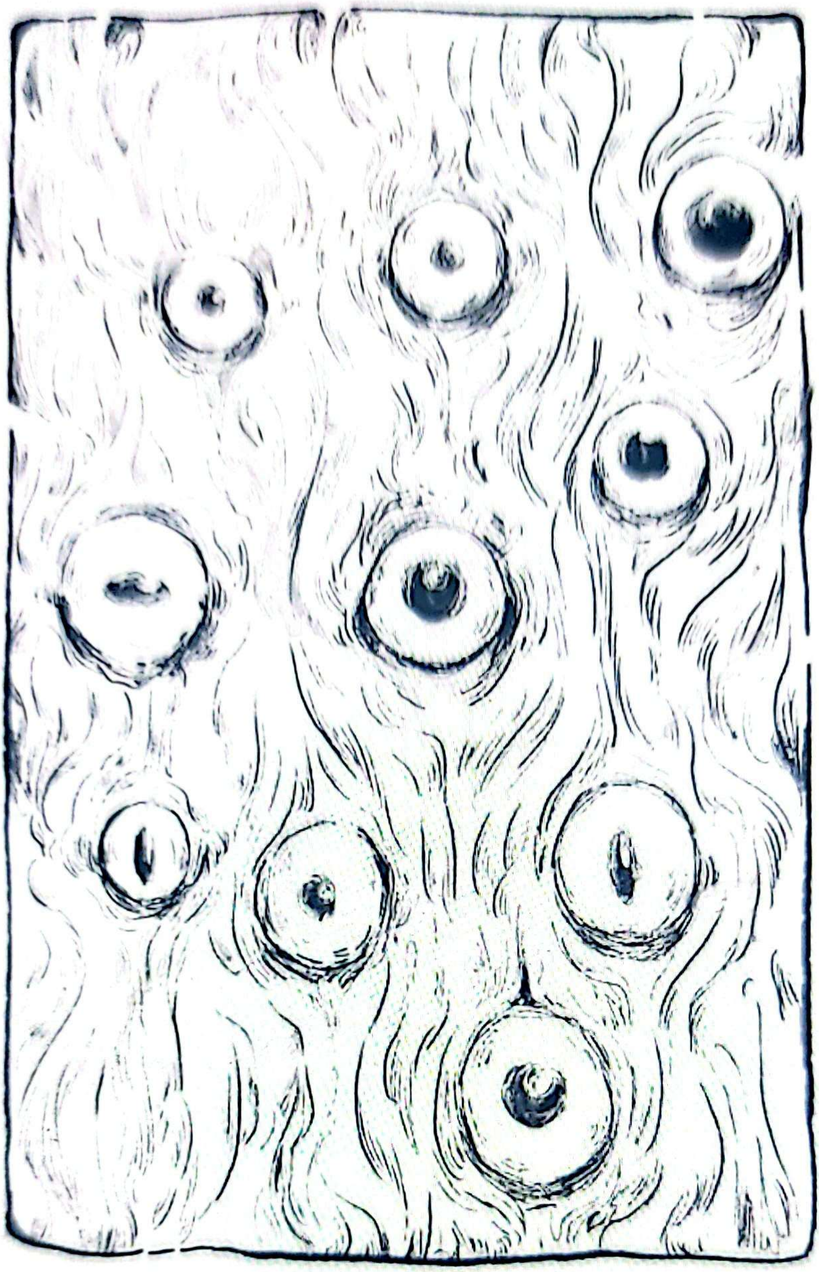

حزينة واسعة. عينان ضخمتان، وعلى كل جانب منهما، عين أصغر قليلًا. وعينان أخريان، أصغر قليلًا على جانبي هذه الأعين الأربع. وأخريان أصغر قليلًا، حتى صار مجموعها ثماني أعين. أم لعلها عشر؟

وفم، فم فاغر شبيه بكهف مظلم كبير، انفتح ببطء كأنه يأخذ نفسًا عميقًا. ونشيج جديد.

كانت الغيمة رأسًا عملاقًا عديم الشكل غير منتظم الأطراف، يشبه قنديل البحر أو الأخطبوط، يمتد في تشابك معقد من الأرجل الغائمة، يغطي المكان كله. أو يشبه عنكبوتًا مشعرًا ضخمًا، امتدت أرجله على شبكته الهائلة التي تمتد فوق البلاد.

انفتح الفم أكثر وهم يراقبون. كانت الغيمة تنشج كرضيع عملاق بفم مفتوح واسع، ويزداد اتساعًا،

والأعين مغمضة. الأشعة الحمراء القوية من أعين العملاقين غطست في ظلام فم الغيمة العنكبوتية الفاغر الشبيه بفم العلجوم.

كان البكاء عاليًا على نحو مريع. اقترب الوجه العنكبوتي، وأراح ذقنه على أعالي الأشجار في الغابة. انفتحت الأعين وحدقت إلى العملاقين متوجعة وسمعاها تقول:

«أطلقا سراحي!»

كانت الكلمات كالغيمة، ملأت المكان كله وصارت مغبشة دخانية، كأن الشبكة الممتدة هوائي ينقل الأصوات.

بدا صوت المرأة الحديدية عاديًا أليفًا، بخلافه، لكنه جاء كالرعد.

قالت: «أفصح عن هويتك أولًا».

صمتت الغيمة العنكبوتية برهة. كانت مدهوشة، ونظرت من علٍ إلى العملاقين اللذين بادلاها النظر بالأشعة القرمزية.

هدر الرجل الحديدي، ساحقًا كل تروس صوته: «أفصح».

دوى صوت المرأة الحديدية: «أخبرنا من أنت».

انتصبت الغيمة العنكبوتية، وجحظت عيناها ثم جأرت قائلة:

«أنا عنكبوت الثراء. الثراء، الثراء. عنكبوت المزيد والمزيد والمزيد والمزيد من المال. أمسكه في شبكتي».

ونظر غاضبًا إلى الأسفل وهز الشبكة الهائلة. لكن أشعة الليزر الأربعة توهجت في أعينه وطرفها، ثم أغمض أعينه وأغلق فمه.

دوى صوت المرأة الحديدية: «أخبرنا من أنت صدقًا».

أطبقت الغيمة الغولة فمها العريض الممطوط. كان شعرها الشائك ينتصب وتصير أغمق، وتجمعت أعينها

وأومضت فيها بروق.

«أنا عنكبوت الكسب، عنكبوت الفوز بأي ثمن. أوقع الغنيمة بشباكي».

وارتفعت إلى علو شاهق، وأطلقت ضحكة هائلة، تهز شبكتها كعباءة بحجم البلاد. والشيء الذي كان يتأوه متألمًا وينشج حزينًا أخذ يضحك.

دوّى صوت المرأة الحديدية: «لقد نفثت كل أكاذيبك، فأفصِح عن هويتك».

تهاوى هوغارث ولوسي على الأرض، كأن العالم انفجر. علا الشكل الهائل وارتد إلى الأسفل في وقت واحد. دهش هوغارث لمّا رأى لسانًا طويلًا مزرقًا يخرج من فم الغيمة العنكبوتية، ويلتف حول الرجل الحديدي كالسوط، ويختفي إلى داخل الفم آخذًا الرجل الحديدي معه.

نادى هوغارث كأنه يقدم المساعدة: «أيها الرجل الحديدي!»

ثم جاء اللسان الطويل مسرعًا، خاويًا، ولف نفسه بإحكام حول المرأة الحديدية.

صرخت لوسي: «أوه لا! أوه لا!»

وتوقف اللسان عن الحركة بطوله الكامل. تلوى محاولًا تحرير نفسه من المرأة الحديدية. فغر الفم المظلم وتلوت شفتاه. ونزلت الأعين فوق الشفة العلوية الكبيرة لتساعد اللسان، لأنه في ورطة. لن يستطيع تحرير نفسه من المرأة الحديدية، التي دفنت أصابعها فيه مثل كماشة فظيعة. حاول اللسان جر نفسه إلى الداخل عبر الشفتين المطبقتين، ليجبرها على إفلاته. لكنها أخذت تتسلقه يدًا فوق أخرى، ساحبة اللسان أكثر من بين الشفتين في تسلقها.

«آاااااااااه!»، انبثق عويل بائس تردد صداه في أركان السماء الأربعة. وارتفعت الغيمة العنكبوتية تتلوى كأنها حوت يخرج من البحر، وارتطمت بالبلدة، وكررت

ذلك. وانفتح الفم حتى نتأت الأعين كأنها فقاعات على إطار سيارة، عندما حاول الشيء أن يتقيأ. امتد اللسان خارجًا، وتمايل على الجانبين. وراقب هوغارث ولوسي الأمر مذهولين، إذ شاهدا المرأة الحديدية وقد قطعت نصف الطريق تتسلق ببطء نحو اللوزتين، في أعماق الفم الشبيه بالكهف الأسود، الذي امتط عريضًا كأنه يحاول قلب نفسه ظهرًا لبطن. كانت أصوات التجشؤ شبيهة برعد متواصل، كأن الهيئة الداكنة العملاقة سقطت على المكان. ولمحا المرأة الحديدية تشق طريقها إلى منبت اللسان في تجويف الحلق. انغلق الفم فجأة وتهاوت الغيمة العنكبوتية على البلدة، صامتة بلا حراك.

وقف هوغارث ولوسي، وقد شحب وجهاهما. وانتفش شعراهما في كل اتجاه كأنهما أنقذا من انفجار. لم يستطِع كلاهما الكلام، وبدا لهما أن الرجل الحديدي والمرأة الحديدية قد قضي عليهما.

غير أن الغيمة كانت تختلج وسمعا بكاء كالذي سمعاه من قبل. ثم قال صوت المرأة الحديدية مكتومًا وله صدى من أعماق الغيمة:

«أفصح عن هويتك. أفصح. أفصح».

وخرجت كل كلمة تصحبها خبطة هزت الرابية تحت أقدامهما. وعند كل خبطة دوى طنين غريب، كأن عارضة معدنية تسقط داخل هيكل سفينة. وقفزت الغيمة العنكبوتية مع كل دوي واهتزت كأنها كيس بداخله حيوان.

قالت لوسي: «المرأة الحديدية تؤدي رقصتها في الداخل هناك. اسمع».

ورد هوغارث: «وهذا الرجل الحديدي يضرب على صدره كالطبل من أجل الإيقاع».

انفرجت شفتا الغيمة العنكبوتية مترهلتين ملتويتين. وانعصرت دموع كبيرة بين الأجفان المطبقة بإحكام، وتدحرجت وانهمرت على البلدة في الأسفل.

بكى الوجه الكبير وقال «فوضى. فوضى».

دوى صوت المرأة الحديدية من الأعماق: «من أنت؟ قلها ثانية». وهزت خطوات خبطها الراقصة الرابية متناغمة مع كلماتها، وترنحت الغيمة العنكبوتية وتغضنت، كقناع هزلي من المطاط، وقالت بنحيب ونشيج: «أنا فوضى. أنا فوضى».

قالت المرأة الحديدية وهي توقع كلماتها مع خبط رقصتها والدوي الغريب الذي هز الرابية: «ومن سيرتبك؟ من سيرتبك؟ من؟ من؟»

بكى الفم الكبير الشبيه بالحلزون: «أمي».

- من؟
- أمي.
- من؟
- أمي.
- من؟
- أمي.
- قولي لنا مرة أخرى، من؟
- أمي سترتبني.

بدأت الغيمة العنكبوتية تدور، لأن المرأة الحديدية تدور بداخلها وتجرها معها كالرداء. زاد الأنين في بكائها وعلا وصار أرفع. انسحبت أطرافها نحو المركز الدوار، كما تلتف الإسباغيتي على الشوكة. وارتفعت كلما التفت وصارت أسرع. ثم صارت دوارة تشبه دوامة ضخمة. تحولت رقصة المرأة الحديدية الدائرية إلى شيء آخر، شيء تسلق عمودًا دوارًا. الغيمة وشباك العنكبوت الضخم التفت حوله بإحكام.

قال هوغارث: «إنه الوطواط الملاك التنين الفضائي، يعود إلى الأعلى ويأخذ الغيمة المريعة معه».

«وماذا عن المرأة الحديدية؟»

كان اللولب الدوار الطويل المتمايل المظلم يعلو،

مثلما شاهدا الوطواط الملاك التنين الفضائي يهبط. لم يبعد هوغارث ولوسي أنظارهما عنه. التفت الغيمة العنكبوتية على العمود الدوار في طياته الشبكية المحكمة، تبرز منها أطراف بالية على الجانبين. وامتطت الأعين الثمانية مسطحة رفيعة طويلة كشريط المطاط، ولكن أين الرجل الحديدي والمرأة الحديدية؟

راقبا العمود المهتز يصعد إلى السماء، وطرفه اللولبي ينفذ ويتلوى إلى أعلى. وتمايل في صعوده ضخمًا داكنًا شاهقًا، وصغر كلما زاد ارتفاعًا. وسرعان ما صار بقعة صغيرة عاليًا في زرقة السماء، فنقطة ملونة كالقبرة. وواصلا مشاهدته حتى غاب عن أنظارهما.

نظرا إلى أسفل الرابية. كان الهواء صافيًا في شمس الصباح، والبلدة نظيفة لامعة. خرج الرجل الحديدي والمرأة الحديدية من الغابة، وصعدا الرابية نحوهما. ركضت إليهما لوسي، ورافقها هوغارث فتوقف العملاقان.

قالت لوسي: «أوه، هل أنت بخير؟»

لم يعد لون المرأة الحديدية الأسود المزرق اللامع الجميل، بل كان لون حديد الموقد بعد اشتعال النار مرارًا، زهريًا صدئًا ورماديًا مزرقًا، وهذا لون الرجل الحديدي أيضًا، كأن في جوف الغيمة العنكبوتية فرنًا.

قالت المرأة الحديدية: «عودا إلى البيت، وراقبا. انتظرا وراقبا».

لم يقل الرجل الحديدي شيئًا، بل رفع يده الضخمة.

سمعت والدة لوسي، مثلها مثل الجميع في البلدة، ورأت العاصفة الهائلة لما جرى في الغيمة الداكنة. وشاهدت أيضًا الغبش الدوار يصعد إلى العدم، كأن العاصفة المروعة انصبّت في السماء الزرقاء من خلال فتحة تصريف. لم تزل واقفة عند النافذة دائخة عندما تذكر صوت من ورائها:

«المناشف، أين المناشف؟»

استدارت، فرأت زوجها في الحوض واقفًا يحمل منشفة صغيرة، يرتجف وقد اقشعر بدنه من رأسه إلى أخمص قدميه، وله لحية عمرها سبعة أيام، وقد التصق شعره بوجهه، وارتسمت على وجهه علامات الذهول. ولكن الأسوأ من كل هذا أن اللحية الجديدة والشعر كانا في بياض الثلج.

صاحت زوجته «تشارلي!» وسقطت مغشيًا عليها.

انتهى الأمر. خرج الرجال من الأنهار والبِرك وأحواض السباحة وأحواض الاستحمام. وركضت النساء في كل مكان يحملن أكياس الثياب والمناشف. عادت الحياة إلى طبيعتها رويدًا رويدًا، وعادت الكهرباء. بدأت السيارات تتحرك، وفتحت المتاجر، ورنت الهواتف بلا انقطاع.

لكن الأمور تغيرت. لم يكن وَالد لوسي وحده من تحول شعره إلى الأبيض، فقد حدث هذا لكل رجل تحول إلى سمكة أو فقمة أو حشرة مائية أو طفيلي. ونظر الرجال ذوو الشعر البني أو الأشيب أو الرمادي في المرايا إلى شعورهم البيضاء الفضية وقالوا:

- يا إلهي! إنني أشبه جدتي!

- لكن وجهي على حاله، أليس كذلك؟

والشبان الذين كان لهم شعور مجعدة ذهبية أو كستنائية بنية لامعة أو فاتحة لم يجرؤوا على النظر إلى أنفسهم في مرايا السيارات أو في واجهات المتاجر. وقالوا لزوجاتهم وصديقاتهم: «ليس غريبًا، فما عشناه لم يكن دعابة. إنه أفظع من رؤية ألف شبح! كانت ستبيَضُّ شعوركن لو كنتن مكاننا»، وفي أيام قلائل نفدت صبغات الشعر من محلات تصفيف الشعر والصيدليات.

وتغيرت أمور أخرى تغيرًا أفضل. فقد أدرك الجميع في الحال أنهم لم يعودوا يسمعون الصرخات المروعة عند التلامس. لكنهم سمعوها طوال الوقت على نحو خافت، كأنها طنين في الآذان، والغريب أنها تجيء

وتذهب.

ولم تكُن معرفة سبب قدومها بالأمر الصعب. إذا نظرت إلى حاوية النفايات، فإن الصرخة تأتي أقوى. إذا وضعت مسحوق الغسيل في الغسالة، فإنها تركز عليك وتقترب منك، كأنها طائرة تمر من فوق البيت، لكنها طائرة تديرها هذه الصرخات. كان هذا صادمًا قليلًا. عندما نظر السيد ويلز، بشاربه الأبيض، إلى أكداس براميل النفايات السامة، جاءت الصرخة بأقصى قوتها، في زعيق مؤلم يشق سمعه، كشيء يأتي إليه مباشرة ولا بد أن يشيح بنظره عن البراميل بسرعة.

لذا لم ينسَ أحد. وقف المزارعون في حقولهم يصغون ويفكرون. وجلس أصحاب المصنع يصغون ويفكرون. جلس رئيس الوزراء مع وزراء حكومته يصغون ويفكرون، وكلما تحدث أحدهم نظر الباقون إلى شعره الأبيض الغريب واستمعوا بحرص أكبر وفكروا مطولًا.

لقد تعلم الجميع الدرس المخيف، ولكن ماذا سيفعلون؟

سيعرفون قريبًا.

لوحظ أمر غريب في الصباح التالي. رأى أول الرجال العائدين إلى العمل في شيكاغو شبكة صفراء، كأنها بيت عنكبوت كبير، غطت بقوة أكداس البراميل التي تحتوي مواد كيماوية سامة. كان كل خيط منها في ثخن القلم الرصاص وسريع الانقطاع، لذا تقطع إلى خيوط قصيرة. كان هذا غريبًا.

غطت الشبكة نفسها كل مكب للنفايات في البلاد، فوق أكوام القمامة، وفوق أحواض مخلفات الماشية، ترى الشبكة نفسها.

احتار الكيميائيون في أمرها عندما حاولوا معرفة ماهيتها. لكنهم عرفوا لأي شيء تصلح، إذ ستكون الوقود المثالي لأنها تذوب في الماء، وستفعل ما يفعله الوقود والنفط، لكن الأسماك تستطيع العيش فيها.

وستحترق في المدافئ بنيران كبيرة من غير أدخنة. وقد وجدوا منها آلاف الأطنان ذلك الصباح.

وحدث الأمر نفسه في الصباح الذي يليه. ورأى الجميع أن القمامة والنفايات السامة قد تحولت على نحو غامض إلى هذه الشباك الصفراء في أثناء الليل.

وإن كان عندك كومة صغيرة من القمامة في الفناء الخلفي، فستجد في الصباح شبكة عليها، أو في أي مكان للقمامة. ويمكنك تذويبها في الماء وتشغيل سيارتك بها لبعض الوقت.

غريب!

أدرك الناس ما يحدث. عندما يخيم الظلام، يتجمع الضباب فوق القمامة أيًّا كانت، ضباب دخاني خيطي داكن، كغيوم الدخان التي نفثها الرجال البائسون عندما كانوا أسماكًا وسمادل وضفادعَ. وتظهر في الصباح شبكة صفراء، وقد اختفت القمامة، أو معظمها. كأن الضباب أكل القمامة وترك شبكة.

ليس غريبًا أن يصفوا هذا بالمعجزة، فلم يحدث هذا في أي بلد.

وإن وصلت القمامة أو النفايات إلى جدول أو بركة، فلن يظهر الضباب إلا إذا توقف ذلك. حرص الجميع على ألا يحدث هذا لأنهم أرادوا الحصول على الوقود العجيب.

لم يفكر السيد ويلز في الأمر مطولًا. فقد سد كل المنافذ المؤدية إلى النهر، وراكم النفايات التي تحولت إلى شباك صفر. وحصد الرجال هذه الشباك كل يوم، وصار في وسعه استيراد النفايات من كل أنحاء العالم. وكلما كثرت كان أفضل. كان على الموردين أن يدفعوا إليه ثمن قبوله النفايات، ثم يبيع الشباك الصفر، وقد ازداد أجره ثلاثة أضعاف.

ووجدوا أيضًا أنها أفضل من روث الحيوانات. أو إنه إذا عولج على هذا النحو كان مناسبًا للقضاء على خنافس كولورادو. وإذا عولج بهذه الطريقة كان مناسبًا

للقضاء على الأشواك. يمكن به فعل أي شيء.

لم يعرف أحد حقيقة الأمر، إذ قالوا وهم يهزون رؤوسهم: «إنها معجزة! حقًا». قال رئيس الوزراء: «لقد حُلت مشكلتنا على نحو غريب».

كان على هوغارث العودة إلى البيت. في الصباح الأخير، صعد هو ولوسي الرابية معًا. كان ثالث يوم من ظهور الشباك، وما زال الجميع مذهولين من الشباك الغريبة الصفر سريع التقطع. وكان هوغارث ولوسي مثل غيرهم، لكنهم عرفوا أن للأمر علاقة بالقتال الرهيب، عندما تسلقت المرأة الحديدية ودخلت جوف الغيمة العنكبوتية وقضت عليها من الداخل برقصتها المخيفة وقوة النجوم التي يتمتع بها الوطواط الملاك التنين الفضائي. دار في داخلها شيء متعلق بالوطواط الملاك التنين الفضائي في غبش دوار وأخذها إلى أعلى.

كان الرجل الحديدي والمرأة الحديدية يجلسان على صخور قمة الرابية بين أشجار الأرز. جلب الرجل الحديدي سيارة مراقب الطيور من المستنقع، وأخذ يطوي قطعها في أشكال صغيرة. كانا في نزهة، وقد اختفى كل أثر للحرق والسفع. بل ازدادا لمعانًا، وكان سواد المرأة الحديدية المزرق جديدًا. تساءلت لوسي ما إذا لمّع أحدهما الآخر، وجلست هي وهوغارث على العشب قريبًا منهما يحدقان إليهما.

قال هوغارث بعد برهة: «هل تسمح لي أن أطرح سؤالًا أيها الرجل الحديدي؟»

أمال الرجل الحديدي رأسه قليلًا وتوقف عن المضغ ليبين له أنه يصغي.

«من أين تأتي الشباك الصفر؟»

عاد الرجل الحديدي للمضغ، وأخذ ينظر إلى المرأة الحديدية. مرت دقائق ثم قالت:

«من أين؟»، وصمتت.

مضغت هنيهة. كانت تحني ظهرها على شيء في حجرها، عملته بحرص. ثم جاء صوتها مدويًا من أسفلهما، أو يتردد صداه من حولهما، وسألت: «من أين أتت الغيمة العنكبوتية؟»

قالت لوسي: «الفقاعات!»

كيف لها أن تنسى الفقاعات؟

مضغت المرأة الحديدية. كأنها لم تسمع، وواصلت عملها في الشيء الذي في حجرها. وقال صوتها: «والفقاعات؟ من أين أتت؟»

كان هوغارث ولوسي يفكران في الشيء نفسه. الواضح أن الفقاعات جاءت من... من جوف والد لوسي مثلًا، عندما كان سمندلًا عملاقًا. ومن جوف والد هوغارث عندما كان ضفدعًا عملاقًا. ومن جوف كل الرجال الآخرين.

عبست لوسي، هل تعني المرأة الحديدية أن الشباك الصفر، أو الشيء الذي يصنع الشباك الصفر، هو نفسه الذي يصنع الفقاعات؟ في أحشاء أبيها وفي أحشاء الآخرين؟ بصورة ما؟ كيف يعقل هذا؟ ودوى صوت المرأة الحديدية مجددًا:

«خوف كبير عميق، يعني تغييرًا كبيرًا عميقًا».

تذكرت لوسي شعر والدها، هذا تغيير كبير لكنه شعر ليس إلا. يجب أن يتغير مصدر الفقاعات أيًا كان. هذا عميق، ولكن ما هو؟ وكيف يعقل...؟ وتاه هوغارث ولوسي في أفكارهما وهما ينظران إلى الوجهين الضخمين الغامضين.

ومدت المرأة الحديدية يدها ووضعت حول كتفي لوسي قلادة ثقيلة باردة مصنوعة من زهور من كل شهر في العام. أحصتها لوسي ووجدتها اثنتين وخمسين زهرة من شتى أنواع الزهور. امتدت اليد العملاقة من جديد ووضعت قلادة زهور مماثلة على كتفي هوغارث. ورفعت كلتا يديها ووضعت قلادة زهور أخرى أكبر بكثير ثخينة جدًا وثقيلة صنعتها من

زهور كف الثعلب حول عنق الرجل الحديدي. ووضعت أخيرًا واحدة على رأسها وأنزلتها على صدرها. رأت لوسي أنها مصنوعة من زهور لبن الثلج.

جلس الأربعة تحت شمس الصباح الدافئة دون قول شيء. اكتفى هوغارث ولوسي بمراقبة وجهي صديقيهما الغريبين الضخمين، وأصغيا إلى الصوت الخافت في آذانهما، ولاحظا أن الصوت صار مختلفًا وأقوى. لم يكن الصوت الخافت لصراخ الكائنات، بل موسيقا بعيدة في الأعلى. ونظر كلاهما إلى زرقة السماء وأصغيا، لم يكن غناء قبرة.

مكتبة إيلينا
Elena book

انتهيت من قراءة كتاب:

المرأة الحديدية | The Iron Woman

منشورات تكوين

قيم الكتاب

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

شارك هذا الكتاب